اقدم النصوص المسيحية

سلسلة النصوص الليتورجيّة

٤

يوحنّا الذهبيّ الفم

ثماني عظاتٍ في المعموديّة



منشورات المكتبة البولسيّة

صدر حتى الآن، في سلسلة «**أقدم النصوص المسيحيّة**»:

أوّلاً: سلسلة النصوص اللاهوتيّة

١ – **اقليمندوس الرومانيّ. راعي هرماس**

تعريب الأب جورج نصّور

٢ – **القدّيس باسيليوس الكبير: مقال عن الروح القدس**

تعريب الأرشمندريت أدريانوس شكّور ق.ب.

٣ – **مار أفرام السريانيّ: منظومة الفردوس**

تعريب الأب روفائيل مطر اللبنانيّ

٤ – **يوحنّا الذهبيّ الفمّ: في أنّ الله لا يمكن إدراكه**

عرّبه وقدّم له الأب جورج خوّام البولسيّ

٥ – **غريغوريوس النزينزيّ: الخطب اللاهوتيّة**

عرّبه وقدّم له الأب حنّا الفاخوري

ثانيًا: سلسلة النصوص الليتورجيّة

١ – **الديداكيّه. التقليد الرسوليّ، نافور ادي وماري خولاجي سيرابيون. عهد الرب**

تعريب الأبوين جورج نصّور ويوحنّا تابت

٢ – كيرلّس الأورشليميّ: **العظات**

تعريب الأب جورج نصّور

٣ – ويلي روردورف: **السبت والأحد في تقليد الكنيسة**

(نصوص من القرن الأوّل حتى القرن السابع)

تعريب الأخت مارسيل هدايا

٤ – **القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ: ثماني عظات في المعموديّة**

ثالثًا: سلسلة النصوص الكتابيّة

رابعًا: سلسلة النصوص النسكيّة

١ – **كتاب المراقي**: عرّبه عن السريانيّة المطران فرنسيس البيسريّ

ثماني عظات في المعمودية

طبعة أولى
١٩٩٣

•

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

بالتعاون مع

A.T.I.M.E.
رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط
المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي:
ص.ب. ٥٣٧٦ بيروت - لبنان
هاتف: ٣٤٤٨٩٤/٦-٣٥٣٩٣٨
برقيا: اكليسيا
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال:
P.O.Box 4259 Limassol. Cyprus
Tel: 05-326022
تلكس: 5378 OIK CY
تلفاكس: 05 - 324496

اقدم النصوص المسيحية

●

سِلسِلة النصُوص الليتورجيّة

٤

القدّيس يُوحنّا الذهبيّ الفم

ثماني عظاتٍ في المعموديّة



عرّب الستّ الأولى منها

الأب جوزف معلوف والأب مشير عون

ونقل الباقي عن اليونانيّة الى العربيّة

الأب حنّا الفاخوري

منشُورات المكتبة البُولسيّة

عرّب هذا الكتاب عن النص اليونانيّ الصادر في سلسلة

SOURCES CHRÉTIENNES N⁰ 50 bis

JEAN CHRYSOSTOME

Huit catéchèses baptismales

Paris, Cerf, 1970



يوحنا الذهبيّ الفم

أوّلاً : حياته

ولد القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم في أنطاكية نحو سنة ٣٤٤، وتوفّي والده ولمّا يزل طريّ العود. فتولّت والدته أنتوسّا أمر تربيته ووكلته الى الخطيب الشهير ليبانيوس علّه يأخذ عنه فنون القول وأساليب البلاغة. وقد زامله في الدراسة وجوه كريمة كان لها في مستقبل الأيّام مراتب ومآثر من مثل باسيليوس أسقف رافانيا بسورية، ومكسيموس أسقف سلوقية، وتيودورس الموبسُوسْتِيّ، وقد قامت بين يوحنّا وهؤلاء روابط روحيّة تحوّلت الى صداقة جمعت القلوب على تطلّب الخير والشهادة للحقيقة.

في عشيّة عيد الفصح من السنة ٣٦٨ نال يوحنّا سرّ المعموديّة المقدّس من يدَي ملاتيوس أسقف أنطاكية وكان قد قرأ الكتاب المقدّس على ديودورس الطرسوسيّ في مدرسته الأسكيتوريون الشهيرة، وبدأت لوامع نبوغه تلفت الأنظار وتشغل العقول. وبعد وفاة أمّه تاقت نفسه الى حياة النسك التي كانت فكرتها تراوده منذ زمن. وكانت أمّه تصدّه عنها، فانقادَ لها أخيراً وأوى الى غارٍ في بادية أنطاكية ولبث فيه أربع سنوات يفترش الأرض ويلتحف

وحشة الغار تائبًا الى الله بالصلاة والذكر والصوم وشتّى ضروب التقشُّف، فتلاشى منه الجسد في شدّةٍ من يقظة الروح ونهض الى أنطاكية يطلب أسقفها ملاتيوس ملتمسًا نعمة الكهنوت فرسمه ملاتيوس شمّاسًا سنة ٣٨١، فامتلأت نفسه غبطة واضطرمت غيرةً فجرّد من قلمه ولسانه منارة محبّةٍ ورسالة هداية، وأكبّ على المقالات الروحيّة يدبّجها، وعلى الكتاب يفسِّره، وعلى الوعظ يدوّي فيه صوته الخالب وقلبه اللاّهب، فضجّت الكنيسة بسحر بلاغته، وتألّبت عليه الجماهير تعبُّ من فيض روحه ومن ذَهَبيّ نُطقه، فرُقّي سنة ٣٨٦ الى رتبة الكهنوت على يد الأسقف فلافيانوس خلَف ملاتيوس، وعُهدَ اليه في الوعظ والإرشاد، فراح يجول جولاته الواسعة، ببلاغةٍ شديدة، وغيرة نادرة، وعمقٍ في استشفاف النفوس والقلوب، لا يستميله بارق من بوارق الدنيا، ولا يستهويه حُطام ولا ترَف، ولا يستثيره زهوٌ، ولا يميل به هوى، همّه أن يُناصر الحقّ وينتصر له، وأن يستلّ النفوس من أجسادها بخورًا أمام عرش الله، وأن يسوق العالم بالكلمة والرحمة الى سعادة الآخرة.

ضجَّ العالَم بيوحنّا، ودوّت مواعظه في القلوب قبل أن تدوّي في القباب، فنوديَ به على كرسيّ القسطنطينيّة خلفًا للبطريرك نكتاريوس الذي توفّاه الله سنة ٣٩٧. تهيّب يوحنّا المنصب أوّلاً ولم يجد له من نفسه قبولاً واستحقاقًا، ولكنّ صوت الله تعالى في صوت الشعب، وصوت الوزير أوتروبيوس والامبراطور أركاديوس المستنير، فرسمه ثاوفيلوس بطريرك الإسكندرية أسقفًا.

كانت القسطنطينيَّة لذلك العهد مدينة البهاء والرخاء، تترامى

النفوس على ملاهيها تَرامي النُّور على الديجور، وتتهاوى العقولُ في مهاويها غيرَ آبهةٍ لمقام ولا مُقيمة لشرعة الأخلاق أيّ نظام، قد غامت عندها سماءُ الإيمان، وشاع الفتورُ والتراخي في كل مكان، فنهض لها يوحنّا نهضة غيرةٍ جارفة، وراح يناهض الفساد في صفوف الكهنة وأديار الرهبان، في زهوة البَلاط الامبراطوري وقصور العظماء، في مسالك الغيّ ودهاليز الضلال، مؤنِّباً تارةً ومقرّعًا أُخرى، مرشدًا تارةً ومحاجًّا أُخرى. ملاينًا تارةً ومُخاشنًا أخرى، لا تثنيه عقبة، ولا يحدّ من اندفاعه تهديد، وهو بين هذا وذاك عين على ذوي البؤس والشقاء، وعين على ذوي الضعف والأدواء، يُهيب بالأغنياء والأقوياء للبذل والمساعدة، ويدعو كل إنسان لكي يكون بلسمًا على الجراح، وبسمةً على الثغور، ونبضة سعادة في القلوب. وقد عمد الى ما في قصره الأسقفي من أثاث ورياش فوزّعه على البؤساء، وراح يخادنُ الفقر في عزّة سلطانه، ويؤالف الضّعة والاتّضاع بين تاجه وصولجانه، ومال الى كنيسته يعزّز احتفالاتها، والناس حوله جماهير جماهير، والبؤساء والكادحون في ساحِهِ جمّ غفير، وقد انتقل ذهبُ تاجه وعكّازه الى قلبه ولسانه، فكان ذهبيّ النفس واللسان، يخاطب الجميع بصفاء النيّة وصَفْوة الوجدان، ويسير بالجميع في محجّة الحقّ والحقيقة والكمال.

لم يكن التفاف الشعب على الذهبيّ الفم ليروق الحاسدين والنّاقمين، وقد أجَّج الحقد فيهم والطمع في النيّل من غريمهم أنّه في سنة ٣٩٩ آوى أوتروبيوس، وزير البلاط الأوّل، حين حاصر الغوط القسطنطينيّة وطالبوا برأسه وتخلّى عنه الامبراطور نفسه؛ وأنّه في سنة ٤٠٠ خلع أنطونيوس متروبوليت أفسس عن كرسيّه لخروجه عن

أخلاق الإنجيل واتّجاره بالمقدّسات ؛ وأنّه استقبل نحو خمسين ناسكًا كان ثاوفيلوس قد طردهم من مصر بتهمة تشرّبهم بعض ما أنكره من الأفكار الأوريجانيّة ؛ وأنّه أنّب الملكة أفذوكيّا لاستئثارها بقطعة من الأرض لا تعود إليها شرعًا... ضجَّ الحاسدون والطامعون ، وهاج الغاضبون والنّاقمون ، فدعا أركاديوس الى مجمع مَثَل فيه الذهبيّ الفم للدفاع عن نفسه وردّ التهم التي وجّهت اليه. وفي سنة ٤٠٣ قدم ثاوفيلوس الى القسطنطينيّة وتواطأ والملكة أفذوكيا على عقد مجمَع يدين يوحنّا ، فكان ما عُرف بمجمع البلّوطة ، ولكنّ الحق لم يُغلَب. فواصل الشرّ طريقه وصدر قرار ملكيّ بنفي الذهبيّ الفم الى كولوزا من أعمال إيصوريا ، وهكذا في التاسع من حزيران سنة ٤٠٤ قرّر الامتثال للإدارة الملكيّة ، في غير انصياع لإرادة الشعب ، وفي غير إصغاء الى أصواته المدوّية ودموعه المنهمرة. سار أبو الشعب وخطيب الجماهير لا لشيء إلاّ لأنّه أحبّ الناس وبذل نفسه في سبيلهم ، ولا لشيء إلاّ لأنّه حارب الظلم والفساد ، وقاوم عنجهيّة أفذوكيا ووجد لها مثيلات في العهد القديم من التوراة. سار في طريق المنفى تاركًا قلبه ينبض في قلوب الناس وذهَبَ أقواله يتلألأ في أجواء البوسفور وفي قباب آجيا صوفيا.

عانى الذهبيّ الفم ما عاناه في جرود إيصوريا الجرداء ، ولقي من ضروب التعذيب والإذلال ما لاقاه ، فتقبَّل ما تقبّله سيّده على الصليب ، في سبيل الكنيسة التي أذاب نفسه بخورًا في حناياها ، وفي سبيل الإنسان الذي مزج دمه بدم فاديه لإنقاذه من الشرّ والأشرار ، وأخيرًا مات راضيًا مَرْضيّاً ، مُحرقةً على مذبح الكون الفسيح

وكلمةً ذهبيّة تتصاعد وتلفّ الوجود بحقيقة لا تزول ، وعقيدة لا تحول .

ثانيًا : مؤلّفاته

يروي الرواة عن ليبانيوس قوله «لولا عقيدة يوحنّا المسيحية لكان خير من يخلفني على منابر الخطابة في أنطاكية» . وقد خلّف لنا الذهبيّ الفم الكثير من المقالات والخطب والمواعظ والرسائل ، حتى عُـدَّ من أغزر الآباء مادّة وأغناهم إفصاحًا عن شؤون الرعاية ، وأوسعهم تناولاً لأمور الاجتماع والسياسة . أجرى قلمه في موضوعات شتّى استمدّها من واقع الحياة اليومية ، ولم يغفل النظر في موضوع الملكوت الذي تصبو إليه البشرية المفتداة بدم المسيح . وراح يرسل الحكم الروحية يستقيها من معين الكتاب المقدّس ، ويُدلي بالآراء اللاهوتية يغترفها من كتابات الآباء الذين سبقوه ، ويبثّ خلاصة اختباراته الروحيّة والزهديّة في تضاعيف مواعظه ورسائله ومقالاته ، مُدعَّمة بكلمات المخلّص وأقوال الرسول بولس ، محكمة الصياغة ، مشرقة الديباجة ، خالية من النوافل ، غنيّة في إيجازها وما يتوارى وراءه من معان .

أ – المقالات

*** الحياة الرهبانية**

١ – **الحياة الرهبانيّة** (مقارنة بين الملك والراهب) : مقالة ترقى الى عهد الاعتزال في جوار أنطاكية .

٢–**في الندامة** : خطابان يعالجان الندامة الحقيقية وشروطها ،

وهما موجّهان إلى الراهبين ديمتريوس واستلاخيوس.

٣-**ضدّ مغتابي الحياة الرهبانيّة**: رسالة كتبها يوحنّا بين ٣٨٣ و٣٨٦ وحرّض في أقسامها الثلاثة أهل أنطاكية على الركون إلى فضيلة الرهبان والعهد اليهم في تنشئة أبنائهم، بعد أن تعاظمت أمور الدعوات الرهبانية وراحت تقلق الأُسَر الأنطاكية. وفيها إظهار لأصالة الدعوة الرهبانية ودحض للتّهم التي ألصقت بها.

٤-**تحريضٌ لتيودورس**: رسالة إلى صديقه تيودورس، الذي أصبح فيما بعد أسقفًا على موبسوست، يحثّه فيها، بعد أن علق قلبه بفتاة تدعى هرميونا وأعرضَ عن الترهّب، على العودة إلى حياة النسك والفضيلة طلبًا لملكوت الله.

٥-**في الكهنوت**: من المقالات التي حظيت بشهرة عظيمة. دبّجها الذهبيّ الفم حوالي سنة ٣٨٢ وضمّنها عصارة اختباراته الروحيّة في فصولٍ ستّة.

٦-**إلى أرملة شابة**: كلمة تعزية حرّرها يوحنّا حوالي ٣٨٠ وزفّها إلى أرملة فقدت زوجها تراسيوس.

٧-**في عدم تكرار الزواج**: مقالة وجيزة (حوالي سنة ٣٨٢) يستلهم فيها يوحنّا رسائل القدّيس بولس في شؤون الزواج ويسدي النصح الى الأرامل لئلاّ يتزوّجن مرّة ثانية بعد ترمّلهنّ.

٨-**في البتوليّة**: مقالة يستهلّها يوحنّا بتفسير مفصّل لرسالة القدّيس بولس إلى الكورنثيين (٧:٣٨) ويخلص إلى إيثار البتوليّة على الزواج نظير معلّمه بولس.

٩-**في شأن أخوات المحبّة**: رسالة قاسية وجهّها الذهبيّ الفم

في مستهلّ أسقفيّته إلى بعض كهنة أبرشيّته يمنع عليهم أن يُساكنوا عذارى منذورات للرب لخدمة منازلهم بعلّة أنّهم يحيون معهنّ حياة الأخوّة والتقوى.

١٠-في المخالطات الرهبانيّة: رسالة راعوية كتبها الذهبيّ الفم بعد ارتقائه السدّة البطريركية ووجّهها في لهجة قاسية إلى الناسكات الحبيسات لكي لا يقبلن الرجال في حجرهنّ بصورة دائمة.

* **التربية المسيحية**

١-في المجد الباطل: مقالة في أصول التنشئة ضمّنها الذهبيّ الفم عصارة آرائه في التربية مستندًا في حججه إلى ما عاينه من تفاقم الفسق والدعارة في أنطاكية.

٢-في تربية الأولاد: مقالة مكمّلة للأولى ينصح فيها يوحنّا الأهل ويرشدهم إلى أفضل السبل لتنشئة أبنائهم.

لم تبرز هاتان المقالتان في المجموعة اليونانية، بيد أنّ العلاّمتين الألمانيّين هايداخر وشولتا أثبتا صحّة انتسابهما إلى كتابات الذهبيّ الفم لما فيهما من قرابة في الأسلوب ولحمة في السبك واتّصال في اختيار الموضوع.

* **الألم في حياة الإنسان**

١-الى ستاجيريوس الذي يعذّبه الشيطان: كتاب في ثلاثة فصول حرّره وهو بعد شمّاس في أنطاكية، وأرسله إلى صديقه الراهب ستاجيريوس يعزّيه بالمصاب الذي ألمّ به من جرّاء ما انتابه من إحباط وقنوط روحيّ.

٢–في أنّ ما من أحد يلحق الأذى إلّا بنفسه: مقالة ترقى إلى زمن النفي يتحدّث فيها يوحنّا عن الحرّية في اختيار الشرّ واقتراف الإساءة إلى الآخرين.

٣–في عناية الله (أو إلى الذين يتعثّرون بسبب المصائب): مقالة موجّهة من المنفى إلى أولئك الذين تثبّطهم مصاعب الحياة وتقعدهم عن السعي إلى الأصلح والأمثل، يحذّرهم فيها يوحنّا من التشاؤم لدى قراءة إرادة الله وقصده في أثناء الوجود البشري وتضاعيف الأحداث اليومية.

*** المقالات الدفاعيّة**

١–في شأن القدّيس بابيلاس ضدّ يوليانوس والأمم: مقالة دفاعيّة دبّجها يوحنّا حوالي سنة ٣٨٢ وأظهر فيها غلبة الديانة المسيحية واندحار الوثنيّة، مستوحيًا قصّة استشهاد الأسقف بابيلاس الأنطاكي.

٢–ضدّ اليهود والوثنيين: من المقالات الدفاعية التي اختلف المؤرّخون في تعيين زمن كتابتها (بين ٣٨١ و٣٨٧). كتبها يوحنّا ليظهر لليهود واليونانيين لاهوت المسيح بالاستناد إلى ما ورد في أقوال أنبياء العهد القديم.

ب–العظات

أغلب كتابات الذهبيّ الفم عظات يرمي من خلالها إلى التوسّع في شرح الكتب المقدّسة وفكّ رموزها والإبانة عن مقاصدها السنيّة. ولقد تلا معظمها على مسامع المؤمنين إبّان خدمته في أنطاكية (٣٨٦

- ٣٩٧). وبأمانة كليّة لمدرسة أنطاكية التي كانت تخالف مدرسة الإسكندرية في استخراج المعاني من نصوص الكتب المقدّسة، عكف يوحنّا على المعنى الحرفيّ وأغناه بمكنوناته الروحيّة التي غالبًا ما كان يعبر منها إلى نصائح خلقية ومسلكية تصلح لحياة المؤمنين اليومية. ومع إيثاره لكتابات بولس التي أفرد لها نحو نصف عظاته، فإنّه جال جولات واسعة في مختلف كتب العهدين القديم والجديد.

* العظات التفسيرية

العهد القديم

١ - **في التكوين**: عظات مؤلّفة من سلسلتين متكاملتين، ألقى الأولى منهما في أثناء صوم ٣٨٦ والثانية في سنة ٣٨٨.

٢ - **في المزامير**: عظات تعود إلى نهاية الحقبة الأنطاكية، اختار فيها يوحنّا ٨٥ مزمورًا تناولها بالتفسير والشرح والتعليق.

٣ - **في أشعيا**: عظات منها ما يرقى الى الحقبة الأنطاكية ومنها ما يرقى إلى زمن البطريركية القسطنطينية.

٤ - **في غموض الأنبياء**: عظات تتناول الأنبياء بصورة عامّة.

٥ - **في حنّة**: خمس عظات تعود إلى سنة ٣٨٧.

٦ - **في داود وصموئيل**: ثلاث عظات في الزمن عينه.

العهد الجديد

٧ - **في إنجيل القدّيس متّى**: مجموعة من ٩٠ عظة ألقيت في أنطاكية سنة ٣٩٠، ناهض فيها يوحنّا المانويّين، وبيّن أنّ إله العهد

القديم وإله العهد الجديد يمثّلان مشترعًا واحدًا ، وأنّ ناموس المسيح هو مكمّل لناموس العهد القديم ؛ وناهض الآريوسيّين مظهرًا أنّ الابن مساوٍ للآب في الجوهر.

٨ – **في إنجيل القدّيس يوحنّا** : مجموعة من ٨٨ عظة تمتاز عن سابقاتها بالقصر والإيجاز ، ألقاها يوحنّا حوالي سنة ٣٩١ وضمّنها دفاعًا عن لاهوت الابن ضدّ الآريوسيين والأنوميّين مظهرًا بوضوح التنازل أو التخلّي الذي آثره الابن افتداءً للبشرية .

٩ – **في أعمال الرسل** : سلسلتان من العظات تشتمل الأولى منها على أربع عظات تتحدّث عن مقدّمة كتاب الأعمال ألقيت في فصح ٣٨٨ ، وتتضمّن الثانية ٥٨ عظة أُلقيت عام ٤٠٠ وتتناول الكتاب كلَّه .

١٠ – **في الرسالة إلى الرومانيين** : ٣٢ عظة ترقى إلى الحقبة الأنطاكيّة ، وتُعتبر من أبهى وأنصع ما وصلنا من شروحات آبائية لهذه الرسالة .

١١ – **في الرسالتين إلى الكورنثيين** : مجموعة من ٤٤ عظة في الرسالة الأولى و٣٠ في الثانية ، ترقى أيضًا إلى الحقبة الأنطاكية . تضاف إليها سبع عظات تشرح مواضع شتّى من الرسالتين .

١٢ – **في الرسالة إلى الغلاطيين** : ترقى إلى الحقبة الأنطاكية (فصح ٣٨٨) ، وهي عبارة عن تفسير متتابع للرسالة يشرح الآيات الواحدة تلو الأخرى ويرصّ فيها الآراء التفسيريّة المختلفة .

١٣ – **في الرسالة إلى الأفسسيين** : ٢٤ عظة أُلقيت كلّها في أنطاكية ما خلا ثلاثًا (السادسة والعاشرة والحادية عشرة) أُلقيت في القسطنطينية بين ٤٠٣ و ٤٠٤ .

١٤ – في الرسالة إلى الفيليبيين: ١٥ عظة ترقى إمّا إلى الحقبة الأنطاكية وإمّا الى زمن البطريركية في القسطنطينية، ينشط فيها الكلام، ضدّ بدع مرقيون وآريوس وبولس الساموساطي، على كمال الناسوت واللاهوت في المسيح.

١٥ – في الرسالة إلى الكولوسيين: إثنتا عشرة عظة أُلقيت في القسطنطينية سنة ٣٩٩.

١٦ – في الرسالتين الى التسالونيكيّين: إحدى عشرة عظة في الرسالة الأولى، وخمس في الثانية، ترقى إلى زمن البطريركية في القسطنطينية.

١٧ – في الرسالة إلى تيموثاوس وتيطس وفيلمون: ثماني عشرة عظة في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس وعشر عظات في الثانية، وعشر عظات في الرسالة الى تيطس وثلاث عظات في الرسالة إلى فيلمون، ترقى كلّها إلى الحقبة الأنطاكية.

١٨ – في الرسالة إلى العبرانيين: ٣٤ عظة أُلقيت في أواخر سنوات البطريركية (٤٠٣–٤٠٤).

* **العظات العقائديّة والدفاعيّة**

١ – في تنزّه الله عن الإدراك: مجموعة من اثنتي عشرة عظة ألقى يوحنّا خمسًا منها في أنطاكية (٣٨٦–٣٨٧) مناهضاً فيها الأنوميّين، وهم من غلاة الآريوسيّين الذين ينكرون القدرة على إدراك الله نظير إدراكه لذاته، وألقى سبعًا أخر في القسطنطينية (٣٨٧).

٢ – عظات في المعمودية: ألقيت جميعها إبّان خدمته في

أنطاكية حين أُوكل إليه إعداد الموعوظين لنيل سرّ المعمودية المقدّس.

٣ - عظات ضدّ اليهود: أُلقيت في أنطاكية (٣٨٦-٣٨٧) ردعًا للمؤمنين من مخالطة اليهود والتردّد إلى مجامعهم.

*** عظات شتّى**

١ - في الميلاد: عظتان اثنتان (٣٨٦/٣٨٥-٣٩٤)

٢ - في معمودية المسيح والظهور: ربّمَا أُلقيت سنة ٣٨٧.

٣ - عظات لنهار الجمعة المقدّسة: عظة في «خيانة يهوذا» وأخرى في «القبر والصليب» وأخرى في «الصليب واللصّ».

٤ - عظة للفصح: «ضدّ السكارى وفي القيامة».

٥ - عظة للصعود.

٦ - عظتان للعنصرة.

وثمة ضمَّة من العظات التي ألقاها الذهبيّ الفم في أوقات مختلفة: العظة الأولى بداعي رسامته الكهنوتية في أوائل سنة ٣٨٦، وعظة بداعي رأس السنة (أنطاكية)، وعظتان ضدّ المسارح التي يلقّبها «بمحافل إبليس»، وعظات في التوبة والتصدّق ومباهج الحياة الآتية. أضف إلى ذلك بعض المراثي البليغة الأثر.

ج - الرسائل

معظم الرسائل التي وصلتنا من القدّيس يوحنّا ترقى إلى زمن النفي، وأشهرها على الإطلاق رسائله التي وجّهها إلى الشمّاسة أولمبيا وعددها سبع عشرة، ورسالتان إلى البابا إينوشانتوس.

عظات المعموديّة

تؤلّف هذه العظات الثماني مجموع العظات التي عثر عليها الأب أنطوان فنغر في دير ستافرونيكيتا في جبل آثوس، سنة ١٩٥٥. وكان لهذا الاكتشاف الوقع العظيم عند كل المعنيين بدراسة آثار الذهبيّ الفمّ، ولا سيّما لِمَا حمله المخطوط من جليل المعطيات بشأن لاهوت المعموديّة وتقاليد الاحتفال بالسرّ والإعداد له، ومنها الانخراط في سلك الموعوظين وتلقّن إرشادات التهيئة إبّان الصوم والعزم على طرد الشياطين من النفس والتنكّر لإبليس والاستعداد لقبول المسيح ونيل سرّ الزيت المقدّس لإرعاب إبليس باسم الثالوث المقدّس والحصول في ختام ذلك على مواهب المعمودية السنيّة. وما من حجّة تصدّنا عن أن نذهب إلى أنّ يوحنّا قد ألقى معظم هذه العظات على مسامع مؤمنيه في أنطاكية عندما عُهد إليه في إرشاد الموعوظين إلى الإيمان والتقوى، ويبدو ذلك بنوع خاص في العظة الثامنة التي تطلعنا على أمر الفلاّحين الذين وفدوا من الريف، ريف أنطاكية حيث الشعب لا ينطق باليونانيّة، ليسمعوا كلام الذهبيّ الفم ويستنيروا بحكمة تعاليمه.

العِظَـةُ الأولى ١

الى الذين يستعدّون للاستنارة

لأبينا في القدّيسين يوحنّا الذهبيّ الفم رئيس أساقفة القسطنطينيّة، عظاتٌ تعليميّة موجّهة الى طالبي الاستنارة والموعوظين، ومن وحي أعمال الرُّسل.

دعوة الموعوظين الى العرس الروحيّ

١ – إنّه لزمن فرح وحبور روحيّ ذاك الذي نحياه! فها قد حضرت أيّام الأعراس الروحيّة، موضوع شوقنا وحبّنا. وإنّ ما يجري اليوم يجوز أن ندعوه عرسًا من غير أن نضلّ. فهو ليس عرسًا وحسب، بل تجنّد رائع وغير مألوف. لا يظننّ أحد أنّ العبارات متناقضة، فالأَوْلى بنا الإصغاء الى الطوباويّ بولس، معلّم المسكونة الذي عبّر بصورتين، إذ قال: «لقد خطبتكم لرجل واحد لأهديكم عذراء عفيفة للمسيح»[1]، مضيفًا في موضع آخر كمن يسلّح الجند إبّان توجّههم إلى الحرب: «إلبسوا سلاح الله الكامل لتستطيعوا مقاومة مكايد إبليس»[2].

٢ – اليومَ الفرحُ يعمّ السماء والأرض. فإذا كنّا نسرّ من أجل خاطئ يتوب، فكم ينبغي لنا بالحريّ أن نسرّ من أجل جماعة كبيرة سخرت من شباك الشرّير، وانخرطت دفعة واحدة في قطيع المسيح متلهّفة الى الانضواء تحت رايته. آنئذ يستولي الفرح على الملائكة ورؤساء الملائكة، على كلّ القوى العُلوية والخلائق الأرضيّة.

---

(١) ٢ كور ١١ : ٢. (٢) أفسس ٦ : ١١.

٣ – ولذلك سوف نجتهد في أن نخاطبكم كمن يتوجّه الى عروس تستعدّ لتلج خدر العريس المقدّس، ونوقفكم على غنى العريس الفيّاض وعلى جودته الفائقة الوصف التي خصّ بها العروس، فنجعل هذه الأخيرة تدرك الشرور التي تحرّرت منها وتعاين الخيرات التي ستنعم بها. لنسلّطنّ الأضواء، إذا سمحتم، على ما يختصّ بها كي نعاين حالتها عند استقبال العروس لها. وهكذا تنجلي بوضوح جودة المعلّم المحبّ البشر اللامتناهية. فالذي خلب لبّ العروس، ليس عذوبتها ولا جمالها، ولا حتّى نضارة جسدها يوم استقبلها. لا، فقد كانت قبيحة ومشوّهة وملطّخة كلّها بدناءة، حتّى ليقال فيها إنّها متمرّغة بجملتها في حمأة خطاياها. ولقد ولج بها، على حالتها تلك، الى عتبة الخِدْر.

٤ – فلا ينشغلنّ أحد، لدى سماعه هذه الكلمات من قِبَلنا، في تفسير حرفيّ جامد، لأنّنا في ذلك إنّما نقصد النفس وخلاصها. فعندما صرّح بولس الطوباويّ عن هذه النفس المحاطة بهالة سماوية، قائلاً: «لقد خطبتكم لرجل واحد لأهديكم عذراء عفيفة للمسيح»، عنى فقط بذلك أنّ النفوس التي تتدرّج في التقوى قد وحّدها بالمسيح كعذراء بريئة من العيب [٣].

٥ – علينا أن نعلم بوضوح، بعد أن استبان لنا ذلك بدقّة، ما كانت عليه العروس من تشويه، كي نشيد بمحبّة الله للبشر. فهل ثمّة شيء أقبح من النفس التي تخلّت عن قسمة ميراثها وتناست الشرف الموهوب لها من العلاء، تلك التي استرسلت في عبادة أصنام خرقاء

(٣) ٢ كور ١١ : ٢.

مصنوعة من الخشب والحجارة، لا بل في الاستعباد لأجسام أكثر قباحة، وتمادت في البشاعة متمرّغة في حمّام الدم ومستنشقة روائح العبادة الوثنية؟ فمن هنا تصدر الشهوات المتنوّعة: القصوف والسكر والعربدة، تلك التي ترتاح إليها الأرواح الشرّيرة وهي ترانا نخدمها.

٦ – فالسيّد، عند رؤيته النفس غارقة في لجّة الخطيئة وفضاحة عريها، يتغاضى عن قبحها وعن شدّة بؤسها وجسامة شرورها، مظهرًا فيض محبّته وفاتحًا لها ذراعيه باستعداد يشهد له نبيّه قائلاً: «إسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك فيصبو الملك الى حسنك»(٤).

٧ – أنظرْ كيف تجلّت محبّته منذ البدء: لقد رضي أن يدعو ابنةً تلك التي تاهت وتدنّست بمخالطتها الأرواح الشرّيرة الفاسقة. ولم يكتف بذلك، بل رفض أن تؤدّي أيّ حساب عن خطاياها. بيد أنّه يدعوها في المقابل ويحضّها على الإصغاء داعيًا إيّاها الى التخلّي عن ماضيها لكي تنصاع الى التنبيه والإرشاد.

٨ – أرأيت محبّة الله الممتنعة الوصف وعنايته الفائقة؟ إنّ داود السعيد سبق ووجّه هذه الكلمات عينها الى البشريّة بأسرها التي كانت تتخبّط في هذا الوضع المؤلم. فها قد حضرت الساعة الآن لنتفوّه بمثل هذا الكلام أمام الراغبين في حمل نير المسيح، والمستعدّين لهذا التجنّد الروحيّ، فنردّد على مسامع كل واحد من الحاضرين ههنا، متوسّعين بعض التوسّع في قول النبيّ: انسوا ماضيكم، يا جنود

(٤) مز ٤٤: ١١.

المسيح الجدد ، وغلّفوا بالنسيان تصرّفاتكم السيّئة . ألا أميلوا أذنكم وأنصتوا متلقّين هذا العتاب الشافي .

٩ – «إسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسَي شعبك وبيت أبيك»[(٥)] . إنّك مدرك تمام الإدراك أنّ ما نوجّهه اليوم الى محبّتك لهو التحريض عينه الذي خاطب به النبيّ البشرية . فقوله «وانسي شعبك» إنّما عنى به عبادة الأصنام والضلال وعبادةَ الأرواح . أمّا قوله «وبيت أبيك» ، فهو يعني التنكّر لمسلكك السالف الذي أدّى بك الى مثل هذه الحالة البشعة . فتناسَ أنتَ كل ماضيك واطرد من ذهنك كل ما يعيد إليك ذكراه . اصنع هذا فقط وتخلَّ عن شعبك وعن بيت أبيك ، أي عن الخميرة العتيقة وعن الخبث الذي به أتلفت نضارة نفسك وقضيت عليها وعلى جسدك في آن واحد ؛ آنئذ يصبو الملك الى حسنك .

١٠ – ها قد أيقنت ، يا عزيزي ، أنّ مدار الحديث هو على النفس ، إذ كلّ عاهة طبيعية في الجسد تعجز عن أن تحوّلها الى جمال ، لأنّ المعلّم قد خلق الطبيعة مستقرّة ثابتة . لماذا وكيف ذلك ؟ لا شكّ في أنّ كل شيء هنا يرتبط بالاختيار الحرّ وليس بالطبيعة . لذا فالنفس المشوّهة والبشعة تستطيع ، أللهمّ إذا رضيتَ بذلك ، أن تتبدّل على الفور وترتقي الى قمّة الجمال مستعيدة حسنها وتألّقها . أمّا إذا أفلت زمامها فهي تهوي إلى أدنى درجات القباحة . هكذا إذن يصبو الملك الى جمالك إذا تخلّيت عن ماضيك ؛ أو كما يقول النبيّ ، «عن شعبك وبيت أبيك» .

---

(٥) مز ٤٤ : ١١ .

الزواج سرّ عظيم

١١ – أرأيت جودة المعلّم؟ فإنّ ما يجري هنا ليس عن عبث ولا عن قصر نظر دَعَوْتُه زواجًا روحيًّا في مستهلّ هذا الخطاب. ففي الزواج الجسدي يستحيل على الفتاة أن تتّحد بالزوج ما لم تتخلَّ عن أهلها الذين منحوها الحياة وربّوها، متّجهة بفكرها دون تردّد نحو الزوج الذي سيتّحد بها. لهذا السبب يدعو الطوباويّ بولس، في معرض حديثه عن الزواج، هذا الأمر سرًّا. فبعد أن قال: «لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته، فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا»[٦]، هتف من شدّة التأثّر لدى وقوفه على عظمة هذا السرّ صارخًا: «إنّ هذا السرّ لعظيم».

١٢ – إنّه بالحقيقة لسرّ عظيم. فأيّ عقل بشريّ يقدر أن يدرك طبيعة ما يحدث، ولا سيّما عندما نفكّر أنّ الفتاة التي رضعت حليب الأمومة، وهي بعد في بيتها، والتي ظنّ أهلها أنّه من واجبهم إحاطتها بضروب العناية الكافية لتربيتها، ستنسى في لحظة واحدة، حينما تأتي ساعة الزواج، آلام من ولدتها وكلّ الاهتمامات الأخرى والحضن العائلي وروابط الحنان. وبكلمة واحدة، ستنسى كلّ شيء متّجهة بفكرها نحو ذاك الذي لم تره إلاّ في هذا المساء. لقد تبدّل كل شيء في حياتها الى حدّ أنّ هذا الرجل أضحى من الآن فصاعدًا كلّ شيء بالنسبة إليها. فهو الأب والأمّ والزوج وكل ما يخطر ببالنا من ألفاظ.

١٣ – وهذا ما استشفّه الإنسان الأوّل بنظرة نبويّة حين قال:

(٦) أفسس ٥: ٣١.

«هذه تدعى امرأة لأنّها من المرء أخذت. لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسدًا واحدًا»[٧]. ألا يمكننا أن نردّد الشيء نفسه للرجل؟ فهو أيضاً ينسى أهله والبيت الأبويّ كي يتّحد ملتزمًا بتلك التي ارتبطت به هذا المساء. ولكي يبيّن لنا الكتاب المقدّس متانة هذا الرباط، لا يقول عن الرجل إنّه «يرتبط بامرأته» بل «يتّحد بامرأته»، وليس هذا بكاف، فيضيف «وكلاهما يصيران جسدًا واحدًا». فهما على حدّ قول الكتاب المقدّس متّحدان أحدهما بالآخر بحيث إنّ الاثنين لا يؤلّفان إلّا جسدًا واحدًا. قل لي: أيّ عقل باستطاعته استيعاب ذلك أو فهمه؟ ألم يكن معلّم المسكونة الطوباويّ على حقّ عندما تناوله على أنه سِرٌّ؟ فهو ليس سرًّا وحسب، بل سرٌّ عظيم.

١٤ – إذا كان الزواج يُعتبر على صعيد الوقائع الحسّية سرًّا، لا بل سرًّا عظيمًا، فكيف يمكننا بالتالي التكلّم على العرس الروحيّ بشكل لائق؟ أنظر الآن بتمعّن كيف أنّ الأمور تسير على الصعيد الروحيّ بخلاف ما يجري على الصعيد الحسّيّ. فبالنسبة إلى الزواج الجسديّ، لا يرضى الرجل مطلقًا بأن يتزوّج امرأة قبل أن يستعلم عن حسنها وعن سحر جسدها، وليس عن هذا فقط، وإنّما يستفسر أيضاً عن اليُسر الذي تنعم به.

١٥ – أمّا هنا، فالأمر على خلاف ذلك. لماذا؟ لأنّ ما يتم إنّما يتّسم بصبغة روحيّة، إضافة إلى أنّ عريسنا يسارع إلى خلاص نفوسنا بدافع حبّه للبشر، سواء أكان واحدنا قبيحًا أم مشوّهًا، بائسًا حتى

---

(٧) تكوين ٢: ٢٣–٢٤.

أقصى حدود البؤس، لا أصل له، أم عبدًا قذرًا وجسمًا ذا عاهة، أم خاطئًا يرزح تحت عبء خطاياه، فالزوج لا يلوم على شيء ولا يستعلم عن شيء أو يطلب حسابًا ما. فمن جهة المعلّم، هناك نعمة وسخاء ومجّانية في العطاء. إنّه لا يطلب منّا سوى شيء واحد، ألا وهو نسيان الماضي والتحلّي باستعدادات حسنة للمستقبل.

عقد الزواج وهداياه الروحيّة

١٦ – أعاينت غزارة النعمة؟ أرأيت العريس الذي به تتّحد الأنفس الطيّعة للنداء؟ لنرَ الآن، إذا سمحتم، تتمّة العرس الروحيّ. في الزواج الجسديّ نعقد ميثاقًا أساسه المهر، متبادلين الهدايا بعضنا مع بعض، فيأتي العريس بالهدايا وعروس المستقبل بالمهر. ألا يمكننا أن نتوقّع حدوث شيء مماثل، ولا سيما أنّه يترتّب علينا أن نوجّه العقل نحو المعطيات الإلهية والروحية انطلاقًا من المعطيات الجسديّة؟ هل هو إذن ميثاق المهر سوى الطاعة والالتزامات التي ينبغي التعهّد بها تجاه العريس؟ وما هي الهدايا التي يأتي بها العريس قبل العرس؟ ألا أصغ إلى الطوباويّ بولس فهو يبيّن لنا ذلك حين يقول: «أيّها الرجال، أحبّوا نساءكم كما أحبّ المسيح أيضاً الكنيسة وبذل نفسه من أجلها ليقدّسها مطهّرًا إيّاها بغسل الماء بالكلمة ليقدّمها لنفسه كنيسة مجيدة، لا كلف فيها ولا غضن ولا شيء مثل ذلك»[٨].

١٧ – أرأيت عظمة الهدايا وفيض المحبّة الفائقة الوصف؟ لا

(٨) أفسس ٥: ٢٥–٢٧.

أظنّ أنّ أحدًا يرضى بسفك دمه من أجل الزوجة التي ستتّحد به، كما «أحبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه من أجلها». فالسيّد العطوف رضي، بوحي من جودته، بهذه التقدمة العظيمة والمدهشة، إذ أحاط عروسه بالعناية كي يقدّسها بدمه الخاص ويقدّمها لنفسه كنيسة مطهّرة وممجّدة بماء العماد المقدّس. لقد أراق دمه وعانى الصليب من أجل أن يمنحنا نعمة التقديس وينقّينا بغسل الميلاد الثاني. أمّا الذين ما برحوا قابعين حتى الآن في الدناءة من غير أن يستفيدوا من شيء، فقد أراد أن يقدّمهم لنفسه «بدون غضن وبدون عيب ولا شيء مثل ذلك».

١٨ – أرأيت كيف أنّه بقوله «ليطهّرها ويقدّمها لنفسه لا كلف فيها ولا غضن»، يطلعنا على حالتها المدنّسة التي كانت تحياها سابقًا. ألا تمعّنوا، يا جنود المسيح الجدد، في هذا كلّه، غير متوقّفين على جسامة بؤسكم وغير آبهين لفداحة خطاياكم. لا ترتابوا في شيء من هذا كلّه ولا تتردّدوا في عملكم. فها قد وقفتم على سخاء المعلّم وعاينتم فيض نعمته وعظمة العطيّة التي منحكم. يا أيّها الذين استحقوا أن يُكتتبوا في مدينته، ألا اقتربوا منه بطيبة خاطر متخلّين عن كل ما فعلتموه حتّى الآن، ولتُظهر موافقتكم الفكرية التحوّل الحاصل.

الإيمان بالآب والابن والروح القدس

١٩ – وبما أنّك تدرك تمام الإدراك حقيقة أمرك، وتعلم الحالة التي يجدك فيها السيّد حين يأتي إليك من دون أن يحكم على نقائصك أو يحاسبك على خطاياك، عليك الآن أن تظهر شيئًا من ذاتك،

مرسّخًا الاعتراف بإيمانك، ليس بشفتيك فقط، بل باقتناع فكريّ راسخ، «لأنّ الإيمانَ بالقلب يقود الى البرّ والاعترافَ بالفم الى الخلاص»[٩]. فيفترض بالاقتناع الفكريّ أن يتجذّر متينًا في الإيمان، كما ينبغي على الشفتين أن تعلنا باعتراف يعبّر عن هذا الإيمان موافقة فكرية ثابتة.

٢٠ – وبما أنّ الإيمان هو أساس التقوى، فحريّ بنا أن نتوقّف عليه، بعض الشيء، كي نتمكّن من رفع البناء دون خوف، بعد أن نكون قد أرسينا هذا الأساس الراسخ. من هنا، ينبغي للذين ينخرطون في هذا الجيش الروحي الخاص أن يؤمنوا بالله سيّدًا للكون وأبًا لربّنا يسوع المسيح، علّة لكل الأشياء ومبدعًا لها بمحبّة خالصة، كائنًا غير محدود ممتنعًا عن إدراكنا له بالكلام أو بالفكر.

٢١ – وأن يؤمنوا بابنه الوحيد، ربّنا يسوع المسيح المساوي للآب في الجوهر والمشابه له كليًّا، المتميّز عنه رغم ذلك في أقنومه الخاص والمنبثق من الآب بحال لا توصف، السابق لكلّ الأزمنة والخالق لكلّ الأجيال، الذي اتّخذ في آخر الأزمنة صورة عبد وصار إنسانًا من أجل خلاصنا، متلبّسًا الطبيعة البشرية، وصلب وقام في اليوم الثالث.

٢٢ – عليك أن ترسّخ هذه الحقائق في ذهنك لئّلا تكون فريسة سهلة للإغراءات الشرّيرة. فإذا كان أنصار آريوس يرغبون من جهة في إيقاعك، فاعلم جيّدًا أنّه من واجبك أن تسدّ أذنيك عن كلامهم مبيّنًا لهم بجزم أنّ الابن مساوٍ للآب في الجوهر، لأنّه هو الذي قال:

---

(٩) رو ١٠: ١٠.

«كما أنّ الآب يقيم الأموات ويحييهم ، كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء»[١٠] . فهو يظهر في هذا كلّه أنّ قدرته مساوية لقدرة الآب. وإذا سعى سابليوس ، من جهة أخرى ، في النيل من المعتقدات السديدة بخلطه بين الأقانيم ، فسدّ أذنيك ثانية أيّها المحبوب عن كلامه وأوضح له أنّ جوهر الآب والابن والروح القدس هو واحد ، غير أنّنا أمام ثلاثة أقانيم. فلا يعقل ، في الواقع ، أن يُدعى الآب ابنًا ولا الابن أبًا ولا الروح القدس بغير اسمه ، لأنّ كل واحد يملك ، بملازمته أقنومه الخاص ، القدرة عينها.

٢٣ – ينبغي لهذه الحقيقة إذن أن تثبت في ذهننا ، وخلاصتها أنّ الروح القدس مساوٍ للاثنين في الكرامة ، على حدّ ما قاله المسيح لتلاميذه : «اذهبوا وعلّموا كل الأمم ، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس»[١١] .

٢٤ – هل وقع بصرك على اعتراف شديد الصواب أو صادفت تعليمًا بعيدًا عن كل التباس كذينك اللذين سبق ذكرهما؟ لا يضلّلك أحد بعد الآن بمحاولته استبدال عقائد الكنيسة باختلاقات من وحي تفكيره ، وذلك بقصد التعتيم على الاعتقادات السديدة والمحقّة. ألا اهرب من معاشرة هؤلاء الأشخاص فإنّهم كالمخدّر السامّ ، لا بل هم أضرّ منه ، لأنّ السمّ إنّما يضرّ بالجسد ، أمّا أولئك الأشخاص فإلى النفس يسيئون. أنظر لماذا يجدر بك منذ البداية أن تجتنب هذه المحادثات حتى تتمكّن مع الوقت من أن تكمّ فمهم لسفاهة

(١٠) يوحنّا ٥ : ٢١.   (١١) متّى ٢٨ : ١٩.

كلامهم، بعد أن تتجهّز جيّدًا بالأسلحة الروحية، أي بالشهادات المستقاة من الكتاب الإلهيّ.

٢٥ – ذاك ما نروم أن نراه عندك من استقامة في ما يختصّ بعقائد الكنيسة وبالحقائق التي ترسّخت في ذهنك. فكما يتحتّم على الذين يعترفون بهذا الإيمان أن يشعّوا بتطويع تصرّفهم، ينبغي أيضاً تهذيب الذين يستحقّون العطيّة الملكية بهذه الأمور. فاعلم إذن أن ما من خطيئة، مهما كانت عظيمة، بوسعها أن تجرّد المعلّم سخاءه. إذا كان أحد فاسقًا أو زانيًا، متخنّثًا أو لوطيًّا، عاهرًا أو سارقًا، جشعًا أو سكّيرًا أو عابد أصنام، فقدرة العطيّة وجودة المعلّم هما من الشدّة بحيث يمحوان كل شيء جاعلين هذا الإنسان أكثر تألّقًا من شعاع الشمس، شرط أن يبيّن عن حسن نيّة.

٢٦ – تأمّل إذن عظمة عطيّة الجودة الإلهية واستعدّ قبل الأوان، ومنذ هذه اللحظة الحاضرة، بامتناعك عن الشرّ، ومزاولتك الأعمال الصالحة. فهذا ما يدعونا إليه النبيّ عندما يقول: «مِلْ عن الشر واصنع الخير»[١٢]. ويضيف المسيح بدوره متوجّهًا الى الجنس البشريّ: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم. إحملوا نيري عليكم وكونوا لي تلاميذ، لأنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم»[١٣].

٢٧ – أرأيت غزارة الجودة وكرم الدعوة؟ ما أبعد هذه الجودة عن الوصف، وما ألطفه نداء ذاك الذي يردّد: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين». ألا تعالوا إليّ جميعكم: رجالاً ونساء، شبّانًا

---

(١٢) مز ٣٣: ١٥. (١٣) متّى ١١: ٢٨–٢٩.

وشيوخًا، أغنياء وفقراء، أحرارًا وعبيدًا، أصحّاء وعرجًا... تعالوا إليّ، يقول الرب. تلك هي في الواقع عطايا الرب، فهو لا يفرّق بين عبدٍ وحرّ، بين غنيّ وفقير، إذ كل تفاوت من هذا النوع غير وارد هنا مطلقًا. «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين».

٢٨ – أرأيت أنّه يوجّه دعوته الى الذين يسرفون في الجور ويرزحون تحت ثقل الخطايا، أولئك الذين يعجزون عن رفع رأسهم، ممتلئين خجلاً ومفتقرين إلى كل ما من شأنه أن يكون موضوع افتخارهم. ولماذا يدعوهم هم بالذات؟ ليس من أجل المطالبة بحساب ما أو نصب المحكمة طبعًا. لماذا إذن؟ لكي يبلسم أوجاعهم ويخفّف عنهم حملهم الثقيل. وهل هناك شيء أثقل من الخطيئة؟ تلك الخطيئة التي غالبًا ما نعتاد عدم الشعور بها، ساعين الى إخفائها عن أعين الناس، لتنبعث ضدّ وعي ضميرنا، ذاك الحاكم النزيه الذي يجعلنا نقاسي بحضوره الدائم أمرّ العذاب، على غرار الجلاّد الذي يمزّقنا ويجهز على فكرنا مبيّنًا لنا فداحة الخطيئة. إخال يسوع يقول: سوف أفرّج عن كرب أولئك الذين تسحقهم الخطيئة وتجعلهم يلتوون تحت عبء أثقالهم، واهبًا لهم غفران خطاياهم، بشرط أن يأتوا إليّ. أيّ قلب قاس هو ذاك الذي يمضي في عناده من دون أن ينصاع الى هذا النداء العطوف؟

٢٩ – ويعلّمنا المسيح من ثمّ كيف تتمّ هذه المؤاساة، فيضيف: «إحملوا نيري عليكم». ألا تقبّلوا هذا النير، يقول الرب، ولا ترتاعوا من هذه الكلمة، لأنّ النير لا يسحق العنق ولا يجعل رأسكم يطأطأ نحو الأرض. فهو، بخلاف ذلك، يعلّمكم أن توجّهوا فكركم الى الأمور العلويّة ملقّنًا إيّاكم الحكمة الحقّة: «إحملوا نيري عليكم

وتعلّموا...»، ألا اخضعوا فقط لنيري، فتتعلّموا لتوّكم. فالتعلّم يعني الإصغاء لكي تستطيعوا أن تتعلّموا منّي. وما أنتظره منكم ليس بالأمر الثقيل؛ أنتم الذين هم عبيدي، ألا اقتدوا بي أنا معلّمكم؛ أنتم الذين هم تراب وغبار، ألا اتّعظوا من الذي خلق السماء والأرض وجبلكم بيده: «تعلّموا منّي، فإنّي أنا وديع ومتواضع القلب»[١٤].

وصف الإنسان الوديع والمتواضع القلب

٣٠ – أرأيت تنازل المعلّم وعطفه غير المدرك؟ فهو لم يطلب منّا أمورًا شاقّة أو مرهقة لأنّه لم يقل: تعلّموا منّي، فقد أتيت بالمعجزات والعجائب وأنهضت الأموات. هذا كلّه صنع قدرته فقط. فماذا هناك يا ترى؟ «تعلّموا منّي، فإنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لأنفسكم». ألاحظت فائدة هذا النير ومنفعته؟ فالذي استحقّ أن يحمله واستطاع أن يتعلّم من السيّد الوداعة وتواضع القلب، يجد الراحة الكاملة لنفسه. ذاك هو جوهر خلاصنا، كما أنّ الذي حصل على هذه الفضيلة، بوسعه وهو قابع في جسد، أن يصارع القوى غير الجسديّة قاطعًا كلّ صلة بالأمور الحاضرة.

٣١ – والذي يحتذي وداعة المعلّم لا يحنق البتّة ولا يضمر لأحد العداوة. وإذا لطمه أحد نراه يجيب: «إن كنت تكلّمت بسوء، فبيّن أين هو السوء، وإن بصواب، فلم تضربني؟»[١٥] وإذا نعته بالممسوس نراه أيضاً يجيب: «ليس بي شيطان»[١٦]، من غير أن

(١٤) متّى ١١ : ٢٩.
(١٥) يوحنّا ١٨ : ٢٣.
(١٦) يوحنّا ٨ : ٤٩.

تقع عليه أيّ شكوى. فهذا الإنسان يحتقر مجد الحياة الحاضرة، إذ لا شيء يأسر قلبه في هذا العالم المنظور، لاستعانته من الآن فصاعدًا بمنظار آخر. فمن يُصحِ متواضع القلب، لا ينظرْ مطلقًا بعين مريضة الى ممتلكات قريبه. ولا ينقاد إلى السرقة، ويتعالى عن كل نهم. بدلاً من أن يتطلّع إلى اقتناء الثروات، نراه يتخلّى حتّى عن ممتلكاته الخاصّة مظهرًا رأفة فائقة برفيقه. إنّه لا يقضي على زواج الآخرين. نعم، ها نحن أولاءِ نرى توافر جميع الفضائل في ذاك الذي رضي بحمل نير المسيح متعلّمًا أن يكون وديعًا ومتواضع القلب وسائرًا في خطى المعلّم.

٣٢ – لنضع ذواتنا إذن في خدمة هذا النير الشريف، ولنرض بهذا الحمل الخفيف كي نجد الراحة. على الذي يروم حمل هذا النير أن ينسى حياته الماضية بأسرها ويسهر بيقظة على عينه، لأنّ الكتاب يقول: «من نظر الى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه»[١٧]. فعلينا إذن أن نقيم حرّاسًا على حواسّ نظرنا حتى لا ينفذ الموت منها. والأمر غير مقصور على النظر وحده، فلا بدّ من السهر الشديد على اللسان. قيل: «كثيرون سقطوا بحدّ السيف ولكنهم ليسوا بأكثر ممّن سقطوا بحدّ اللسان»[١٨]. كما ينبغي أن نقمع سائر الأهواء التي يمكنها أن تنمو، مرسّخين الروح في السكينة وطاردين الغضب والضغينة والحقد والعنف والأهواء المضلّة والخلاعة على أنواعها مع أعمال العهر وعبادة الأوثان والسحر والعداوات والخصومات والأطماع والسكر والقصوف.

---

(١٧) متّى ٥ : ٢٨.

(١٨) إبن سيراخ ٢٨ : ١٨.

٣٣ – وعلينا أن نستأصل كل هذه العيوب، مجتهدين في الحصول على ثمر الروح الذي هو المحبّة والفرح والسلام والصبر واللطف والصلاح والوداعة وطول الأناة. فإذا نقّينا فكرنا كلّه بتلك الوصايا التي يزخر بها تعليم التقوى، نستطيع منذ اللحظة الحاضرة أن نجمّل نفسنا، فنستحقّ الحصول على العطيّة في كل بهائها والمحافظة على الخيرات الممنوحة لنا.

زينة المرأة الحقيقيّة

٣٤ – فلنقصِ إذن كل اعتناء بالزينة الخارجية وكلّ بذخ في اللباس، مفرغين حميّتنا في نحت قسمات النفس، كي يضحي جمالها أكثر تألّقًا. ألا تجنّب الثياب الحريريّة والنسائج المطرّزة والعقود الذهبية، فمعلّم المسكونة قد تنبّه إلى رخاوة الميول الطبيعية وهشاشة الإرادة، خصوصًا عند المرأة، ولم يتورّع عن سنّ القوانين، حتّى في أدّق هذه التفاصيل. ماذا أقول؟ إنّه لم يرفض أن يلقّننا هذه التفاصيل، هو الذي نهى في سياق حديثه عن الجواهر قائلاً: «لا جواهر ولا ذهب ولا لآلئ ولا حلل فاخرة». إليك تفسير كلامه: بتبرّجك، يا امرأة، تبغين نيل المديح من الذين ينظرون إليك، وما أطلبه أنا هو أن لا تتوقفي فقط على مديح أبناء جنسك، بل أن تحظي بثناء سيّد الخليقة كلّها.

٣٥ – وبما أنّ الرسول قد تنكّر للزينة التي نبحث عنها في الجواهر والذهب واللآلئ والثياب الفاخرة، فلنسرّح الطرف في الزينة التي يخلعها الرسول على المرأة. إنّ الثياب والذهب الذي تتبرّج به هذه الأخيرة، يمكنها أن تأسر قلبها إلى حين، إلاّ أنّ هذه الزينة تبلى مع مرور

الأيّام. هل أقول تبلى؟ بل قبل أن تتلفها الأيّام، تَلفُت المرأة بزينتها نظر الحسّاد إليها، فتحمل الأشرار على سلبها. أمّا الزينة التي يريدها الرسول للمرأة، فلا أحد يقدر أن يسلبها أو يتلفها لأنّها تدوم طويلاً مستقرّة معنا ههنا، ومن ثمّ فهي تصحبنا الى دار الخلود.

٣٦ - حريّ بنا أن نصغي إلى قول الرسول نفسه في هذا الموضوع: «ينبغي أن تكون زينتهنّ على ما يليق بنساء مشتهرات بعبادة الله وبالأعمال الصالحة»(١٩). فتصرّف إذن، يقول الرسول، بمقتضى اعتراف إيمانك ولا تسع إلى زينة أخرى ما خلا زينة الأعمال الصالحة. لتنسجم مزاولتك للأعمال الخيرية مع اعتراف إيمانك، وإن جاهرت بالتقوى نحو الله، فعليك أن تتمّم ما هو مرضيّ لديه: الأعمال الصالحة. ماذا أضيف إلى هذا القول؟ زينة الأعمال الصالحة! لا شكّ في أنّ الرسول يرمي من خلال ذلك إلى باقة من الفضائل، كاحتقار الخيرات الحاضرة والتوق الى الخيرات الآتية، وازدراء الغنى، والسخاء نحو الفقراء، والتواضع والوداعة وحُبّ الحكمة، وحفظ الروح في السلام والصفاء ورفض كل فتنة تحملنا على التعلّق بمجد الحياة الحاضرة، والاهتمام بتوجيه نظرنا نحو العالم العلوي لكي لا ننشغل أبدًا إلاّ بهذه الخيرات ولا نتطلّع إلاّ إلى هذا المجد.

٣٧ - وبما أنّني أتوجّه الآن إلى النساء بنوع خاص، أودّ ان أسوق إليهنّ بعض التوصيات الخاصة. فليمتنعن، إلى جانب أشياء عدّة، عن تلك العادة المشوّهة، عادة تخضيب الوجه، كما لو كنّ

(١٩) ١ تيموثاوس ٢: ٩.

بصدد إكمال عمل ناقص. فلا تهينّ المبدع! ما الذي تفعلينه يا امرأة؟ أتتصوّرين أنّك بهذا الخضاب وهذا التبرّج تضيفين شيئًا على جمالك الطبيعي، أو تحدثين تغيّرًا في بشاعتك الطبيعية؟ لا، لن تضيفي شيئًا على جمالك بهذه الوسيلة، بل تفسدين بذلك جمال نفسك لأنّ هذه الاهتمامات الطائشة لدليل رخاوة داخلية. فبإثارتك نظر الشبّان وانتباه الطائشين تصبيّن عليك جمرة محرقة، دافعة بهم إلى السقوط في الحمأة ومتحمّلة بذلك مسؤولية وقوعهم.

٣٨ – إنّ الامتناع عن هذا التخضيب أمر لائق ومفيد. فإذا أحجمت عن ذلك، فأولئك اللواتي أصبحن حبيسات هذه العادة السيّئة، فليمتنعن (عن التبرّج) على الأقل عندما يختلفن إلى بيت الصلاة. ألا قولي لي لماذا تعتنين بنفسك على هذا النحو كل مرّة تتردّدين فيها إلى الكنيسة. هل ذاك الذي تقصدينه بغية الصلاة والاعتراف له بخطاياك يطالب بهذا النوع من الجمال؟ ما يبغيه السيّد إنّما هو الجمال الداخلي ومزاولة الأعمال الصالحة والصدقة والقناعة والندامة والإيمان المتشدّد. وإخالك تعرضين عن هذا كلّه متفنّنة في تعثير عدد لا بأس به من غير المكترثين حتّى في داخل الكنيسة. إنّك لتستحقّين أشدّ العقوبات على صنيعك هذا: تصلين إلى المرفأ إلاّ أنّك تهيّئين لنفسك الغرق، وتقصدين الطبيب لمعالجة جراحاتك إلاّ أنّك ترتدّين عنه وهي أشدّ خطرًا من ذي قبل. فأيّ غفران ينتظرك بعد اليوم؟

ضدّ التنبّوءات والأحلاف والمشاهد

٣٩ – أسأل أخيرًا الرجال والنساء أن يتجنّبوا تنبّوءات السحرة

وتخمينات المنجّمين. فتلك هي عادات اليونانيين وتيهان أولئك الذين هم تحت سلطة الضلال: فثمّة أناس يقلقون من نعيق الغراب وصئيّ الفأرة وطقطقة الدعامة، وثمّة من يتفاءل لدى ملاقاته أصحاب السيرة السيّئة ويهرب من الأشخاص الأتقياء والمتعبّدين كأنّهم مصدر شرور لا تعدّ. أُنظرْ كم هي عديدة مكايد الشيطان: فهو لا يبغي فقط حرماننا من الفضيلة والإيقاع بنا في الرذيلة، بل يسعى أيضاً إلى زرع الحقد ضدّ الفضيلة بغية صرفنا عن أولئك الذين ينهجون سبيلها. كما أنّه لا يكتفي بإرغامنا على اتّباع طرق الشرّ، إنّما يجتهد، مستنفدًا كل الوسائل، في جعلنا نعتاد ممارسة الرذيلة، دافعًا بنا إلى التلذّذ بملاقاتها.

٤٠ – لا تظنّوا أنّ هذه الأمور الصغيرة هي عديمة الفائدة. فكّروا بالحريّ بأنّها قادرة على إغراق نفسكم وسوقها إلى هوّة الشرّ. هنا يظهر مخطّط الشيطان الخبيث القاضي بجعلنا نتعثّر حتّى في أصاغر الأمور. فاطرحوا عنكم إذن، يا جنود المسيح الجدد، رجالاً ونساء، لأنّ جيش المسيح لا يعرف التمييز الجنسيّ، كل عادة من هذا القبيل، مدركين أنّكم ستستقبلون ملك البريّة، ونقّوا شعوركم على أتمّ وجه بحيث يعجز الصدأ عن إفساد أفكاركم.

٤١ – إذا كان لدينا عدوّ ما، فلنتصالح معه واضعين أمام أعيننا كل ما سنحرزه من المعلّم، نحن الغرقى في جمّ من الخطايا. لنصفح للقريب عن الهفوات التي ارتكبها تجاهنا لأنّه مكتوب: «لا تفكّروا شرًّا في قلوبكم الواحد على قريبه»[٢٠]. فإذا كان لأحد

(٢٠) زكريّا ٨: ١٧.

منكم ديون وكثير من الفوائد، فليمزّقها لأنّه قيل: «أبطلْ الدين الجائر». وبكلمة واحدة، فليتسابق كل واحد في تنفيذ ما عقد عليه العزم كي يحظى بغفران وافر من قبل المعلّم.

٤٢ – وفوق كل هذا، مرّن لسانك على عدم الحنث بالعهود. فأنا لست في معرض الكلام عن الأحلاف الكاذبة، بل الأحلاف الباطلة والنافلة التي تضرّ بالذين يتفوّهون بها. فقد قيل لك: «لا تحنث، أمّا أنا فأقول لكم، لا تحلفوا البتّة» (٢١). أسمعت ما يقول: «لا تحلفوا البتّة». فلا تتدخّل بعد الآن في مناقشة القوانين الصادرة عن المعلّم، بل امتثل لوصاياه، منقّيًا عقلك بأكمله.

٤٣ – إحتقر ميدان سباق الخيل ومشاهد المسارح الفاسقة واللذّة الدموية الناجمة عن مصارعة الحيوانات المفترسة، لأنّ جمرة الفجور إنّما تستعر بهذه الأفناد. أيّ لذّة تجد في مشاهدة نظيرك وأخيك في الطبيعة البشرية تمزّقه الحيوانات الضارية؟ ألا ينتابك الخوف والهلع لرؤية البرق ينقضّ على رأسك من السماء ليصرعك؟ فأنت من يجعل الحيوانات، إذا جاز لنا القول، تكشّر عن أنيابها، مشتركًا شخصيًّا، بإطلاقك الصرخات، في الجريمة التي تُرتكب. فإذا كنت عفيف اليد، فلسانك ليس ببريء.

٤٤ – أتوسّل إليك ألاّ تكون متهاونًا في ما يتعلّق بأمر خلاصك. ألا انظر في كرامتك واخجل. فإذا اتّفق أن أملت عليك كرامة بشرية أفكارًا سامية وجعلتك تمتنع عن القيام بعمل ما بغية عدم ازدرائها، أفلا يجوز لك، أنت المزمع أن تنال كرامة عظمى، أن

---

(٢١) متّى ٥: ٣٣-٣٤.

تشعّ احترامًا من كيانك؟ عظيمة هي الكرامة التي ستحظى بها، فإنّها سترافقك طول الدهر الحاضر وتتبعك في الحياة المقبلة. فما هي إذن هذه الكرامة؟ من الآن فصاعدًا ستدعى مسيحيًّا ومؤمنًا بنعمة الله. ها نحن أولاءِ امام كرامتين، لا واحدة فحسب. إنّك سوف تلبس المسيح بعد فترة وجيزة، لذا يجدر بك أن تعلم أنّ المسيح موجود معك في كل مكان، وأنّه ينبغي لك، في كل شيء، أن تقرّر وتنصرف الى العمل.

٤٥ – ألا ترى أيضاً ما يخامر القادة السياسيين من أفكار سامية حينما يرتدون ثيابًا تحمل صورًا ملكية؟ هذا مدعاة فخر لهم، إذ يتمتّعون بجرس شرف. فإذا رغب هؤلاء القادة في أن يُحترموا لكونهم يحملون صورًا على ثيابهم، فكم بالحريّ عليك أن تحترم أنت الذي سوف يلبس المسيح في شخصه؟ أوَلم يقل: «وأسير فيما بينكم وأكون لكم إلهًا»[٢٢].

٤٦ – أهربوا إذن من إغراءات الشيطان المؤذية، وآثروا ارتياد الكنيسة على كل شيء. وإلى جانب إمساككم عن الطعام وامتناعكم عن الشرّ، تزوّدوا باندفاع نحو الفضيلة. لنعكف طول نهارنا على الصلاة والشكر، منصرفين الى القراءة وتقريع النفس ومفرغين جهدنا كلّه في تبادل الأحاديث الروحية. ولكي لا نقع في حبائل الشرّير يعوزنا تيقّظ مرهف. فإذا كنّا سنؤدّي حسابًا عن كل كلمة نافلة، فكم بالحريّ عن الترّهات التافهة ومحادثات هذا العالم.

(٢٢) أحبار ٢٦ : ١٢.

٤٧ – فإذا كنت مهتمًّا بصحّة نفسك ومعتنيًا بها ، يمكنك آنئذ أن تستعطف محبّة الله الوافرة وتنعم بوعد صادق ، ونقدّم لك بدورنا تتمّة هذا التعليم بحماسة فائقة عالمين أنّنا ننثر بذور الروح في آذان مستعدّة وأرض زكيّة وخصبة. منيتنا أن نحصل على عطفه وأن تستحقّوا أنتم بوفرةٍ عطيّة الله ، بنعمة ابنه الوحيد ورحمته ، الذي له وللآب والروح القدس المجد والقدرة والإجلال ، الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور. آمين.

العِظَةُ الثَّانيَة

من الخطيب نفسه، متابعًا كلامه في طالبي الاستنارة؛ وإظهار واضح للأمور التي تُجرى سريًّا ورمزيًّا في المعموديّة الإلهيّة.

١ – لنتوجّه من جديد ببضع كلمات إلى المكتتبين في عداد الذين أضحوا مُلكًا للمسيح، ولنُرِهم قيمة السلاح الذي سيحصلون عليه والعطف الفائق الوصف الذي يظهره إله المحبّة للجنس البشري، كي يتقدّموا بإيمان عظيم وثقة تامّة، ويتمتّعوا بسخاء إلهيّ أوفر. ألا تأمّل أيّها الحبيب غزارة المحبّة المتجلّية بواسطة الله منذ الابتداء. فإذا اعتُبر أهلاً لعطيّة عظيمة أولئك الذين لم يأتوا البتّة بشجاعة ولم يذوقوا الآلام حتّى الآن، وإذا تغاضى هو عن الأخطاء المرتكبة طوال الأيّام الماضية، فأيّ مكافأة، قل لي، هذا إن كنت تملك إرادة الإجابة بصدق عن هذا المعروف ببذلك شيئًا من عندك، تستحقّها من لدن إله المحبّة.

٢ – أمّا في الأمور البشرية، فلا نقع على شيء من هذا القبيل. بل على العكس من ذلك، هناك أناس كثيرون قد عادوا أدراجهم، فارغي الأيدي، بعد أن قاسوا مرّات عديدة عذابات ومشقّات كثيرة، إمّا لأنَّ الأشخاص الذين انتظروا منهم مكافأة قد أجحفوا بحقّهم رغم جهودهم القاسية، وإمّا لأنّهم غالبًا ما خطفوا من هذا العالم دون أن يتسنّى لهم تحقيق هدفهم. وأمّا في ما يختصّ بخدمة

معلّمنا. فلسنا نعجز فقط عن افتراض شيء مماثل، بل قبل أن نشرع في تقديم البراهين ومقاساة الآلام، يسبقنا السيّد بسخائه، مفيضاً علينا خيراته التي لا تحصى، بغية حملنا على الاستعداد لخلاصنا.

سلوك الله مع الإنسان الأوّل

٣ – هكذا إذن كان الله منذ البدء يسبغ الخيرات على الجنس البشريّ. فما إن خلق الإنسان الأوّل حتى وهبه الجنّة مسكنًا له وأنعم عليه بهذه الحياة السعيدة مانحًا إيّاه حقّ التمتّع بكل خيرات الجنّة، ما خلا شجرة واحدة. بيد أنّ الإنسان لعدم اتّزانه استسلم لخداع المرأة، دائسًا الوصيّة التي تسلّمها وممتهنًا الشرف العظيم الذي حظي به.

٤ – فانظر إذن عظمة محبّته للبشر. فقد كان من العدل أن يعتبره غير مستحقّ لأيّ غفران، مقصيًا إيّاه عن مخطط عنايته، للإجحاف الذي أظهره بحقّ عناية المحسن به. والحال أنّ الله لم يحجم فقط عن الإتيان بهذا العمل، بل تصرّف بمقتضى محبّته، على غرار الأب العطوف الذي إذا ما ثار ابنه في وجهه، يلين قلبه بفضل صوت الطبيعة، ولا يعود يقيس العقوبة على فداحة الخطإ، دون أن يتخلّى طبعًا عن التأنيب، معتدلاً في معاقبة ابنه لخوفه من أن يزداد انغماس هذا الأخير في الشرّ. ولأنّ الإنسان أظهر تمرّدًا جسيمًا، فقد أبعده الله عن حالته الطوباويّة وقمع تكبّره خوفًا من أن يعظم تمرّده في المستقبل، مرغمًا إيّاه على العمل والشقاء. وكأنّي به يقول له:

٥ – لقد أدّى بك هذا الانفلات الكلّي وهذه الحريّة الكاملة إلى تمرّد خطير وجعلتك تغفل وصاياي. وبما أنّه لم يكن لديك شيء

تنشغل به ، فقد دفعك هذا الأمر إلى التحليق بأفكارك الخاصة ، لأنّ «الفراغ يعلّم ضروب الخبث»[١] . لذا حكمت عليك بالعمل والشقاء ، كي تتذكّر دومًا وأنت تحرث الأرض تمرّدك ورخاصةَ قيمة طبيعتك . لقد استسلمت لأحلام العظمة وأبيت أن تستقرّ في حدودك الخاصة ، لذا أريدك أن تعود إلى هناك ، إلى الأرض التي أخذت منها ، لأنّك «تراب وإلى التراب تعود»[٢] .

٦ – ولكي يشتدّ ثقل ألمه عليه ، فيعي سقطته بتحسّس أكثر ، حرص الله على أن لا يجعله في مكان ناء ، بل أقامه بالقرب من الفردوس . وحظّر عليه دخوله ، ليتيح له ، كل لحظة ، التأمّل في الخيرات التي فقدها بسبب إهماله ، ولينعم عليه بتيقّظ دائم للنظام حاثًّا إيّاه في المستقبل على الامتثال للأوامر المعطاة بدقّة . فإذا كنّا لا نشعر ، حين نتمتّع بحظوة ما ، بالخير الذي تمثّله ، إلاّ أنّا ، لحظة حرماننا منها ، نستفيق أكثر على هذا الخير ، ونتحسّر على فقدانه . وذاك عينه ما حصل مع الإنسان الأوّل .

٧ – ألا انظر ما كان الشيطان ، بخداعه ، ينوي القيام به ضدّ الإنسان ، وما أظهره المعلّم بدرايته من لطف ، فيتسنّى لك عندئذ أن تقف على بيّنةٍ من شرك الشرّير الخبيث ومن استعدادات معلّمنا الحكيمة . لقد اضطرم صدر الشيطان حسدًا على إقامة الإنسان في الفردوس ، فجعله يأمل في الحصول على خيرات جمّة ، سالبًا إيّاه ما كان في حوزته منها . وجلب على هذا الإنسان عقوبة الموت عندما دفعه إلى التفكير بمساواته لله . تلك هي في الواقع إغراءاته : إنّه لا

---

(١) إبن سيراخ ٣٣ : ٢٩ . (٢) تكوين ٣ : ١٩ .

يفقدنا فقط الخيرات التي نمتلك ، بل يسعى إلى رمينا في هوّة أشدّ عمقًا . بيد أنّ إله المحبّة لم يتخلّ حتّى في هذه الظروف عن الإنسان ، بل منحه الخلود بموته كي يظهر للشيطان غباوة مخطّطاته وللإنسان ما يكّن له من اهتمام ورعاية . ألا تمعّن بالحريّ في هذا الأمر : إنّ الشيطان رمى بالإنسان خارج الفردوس ، أمّا المعلّم فأدخله السماء . إنّ الفائدة لأعظم من القوّة .

٨ – وهذا إذن ، كما ذكرت في مستهلّ حديثي ، ما حملني على الاستطراد ، فإن كان الله قد أظهر للمذنب عطفًا كبيرًا ، على الرغم من الجحود الذي عرفته خيراته السامية ، فأيّ سخاء ، قولوا لي ، أنتم يا جنود المسيح ، سيَمنّ الله به عليكم إذا اجتهدتم في أن تكونوا أوفياء للعطايا الفائقة الوصف التي حصلتم عليها وسهرتم على الاحتفاظ بها حين امتلاككم لها . فهو الذي قال : «إنّ كل من له يعطى فيزداد»[٣] . من العدل إذن أن يحظى ذاك الذي استحقّ ما حصل عليه من قبلنا بأكثر من ذلك .

الرؤية بعين الإيمان

٩ – فأنتم الذين أهّلتم لأن تكتتبوا في هذا الكتاب السماويّ ، ألا تحلّوا بإيمان سخيّ وعزم لا ينثني . ولكي لا نفكّر فقط بما يرى ، فالأمر الذي يتمّ هنا إنّما يحتاج إلى الإيمان وإلى أعين النفس حتّى نتمثّل من خلاله صورة ما هو غير مرئيّ . تلك هي حال أعين الإيمان : كما أنّ أعين الجسد لا تقوى إلّا على رؤية الأشياء التي تقع

(٣) متّى ٢٥ : ٢٩ .

تحت حكم الحواسّ، كذلك أيضاً أعين الإيمان لا ترى شيئًا من الأمور التي تقع تحت النظر، بل تعاين بخلاف ذلك أمورًا تنبسط أمامنا دون أن نتناولها بنظرنا. فمن خواصّ الإيمان أن يستند إلى ما لا نراه كأنّه أمرٌ منظور، «لأنّ الإيمان هو قيام المرجوّات فينا وبرهان غير المرئيّات»[٤].

١٠ – ماذا يعني هذا الذي ذكرته؟ ولماذا قلت إنّه لا ينبغي التوقّف على الامور المرئيّة، بل النظر بالأعين الروحيّة؟ ذكرت ذلك كي لا تعتقد حين يقع نظرك على بركة المياه أنّها مياه عادية، أو على يدالكاهن الموضوعة على رأسك فتظنّ أنّها يد الكاهن فقط، لأنّ ما يجري هنا ليس من صنع الإنسان بل من عمل نعمة الروح. فهي التي تقدّس المياه الطبيعية وتحلّ على الرأس بواسطة يد الكاهن. أفلم أكن على حقّ حين قلت إنّنا نحتاج إلى أعين الإيمان حتّى نؤمن بغير المرئي، دون أن نلصق به أيّ اعتبار مادّي؟

١١ – فما المعمودية إلاّ دفن وقيامة: «يدفن الإنسان العتيق مع الخطيئة ويقوم إنسانًا جديدًا على صورة خالقه»[٥]. وهي أيضاً انعتاق واكتساء: نخلع الثوب العتيق المتّسخ بجمّ من الخطايا ونلبس الجديد المنقّى من كل لطخة. ماذا قلت؟ إنّنا لنلبس المسيح نفسه لأنّ الكتاب يقول: «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم»[٦].

---

(٤) عبرا ١١ : ١.
(٥) راجع كول ٣: ١٠.
(٦) غلا ٣ : ٢٧.

طرد الشياطين : غايته ورموزه

١٢ – ولكن دعني أطلعك، قدر المستطاع وبعد ما حانت الساعة التي فيها ستمنح مواهب قيّمة، على أسباب تعدّد الحفلات الطقسية، حتّى إذا ما وقفت على حقيقتها تنطلق وأنت مُسلّح بمزيد من اليقين. ينبغي إذن أن تدرك السبب الذي حملنا على إرسالك بعد هذا التثقّف الديني الى أصحاب الأصوات التي تطرد منك الشياطين. لا إخال هذه الحفلة الطقسية عديمة الفائدة أو من دون مبرّر. وبما أنّك ستستضيف الملك السماويّ، بعد الانتهاء من عظتنا، فإنّ الذين عيّنوا لهذه الرتبة الآنف ذكرها سيستقبلونك، وكأناس يشعّون حبورًا في البيت الذي يحلّ فيه الملك، ينقّون روحك بهذا الكلام الرهيب الذي يقصي عنه أحابيل الشرير ويجعله أهلاً لمجيء الملك. فإنّه يستحيل على الشيطان، في ما هو عليه من تحرّر وشراسة، ألاّ يُقدم على هجرك بسرعة، إثر استدعاء سيّد الكائنات كلّها وبعد الانتهاء من هذه الكلمات الرصينة. إنّ هذه الحفلة الطقسية تطبع النفس على مزيد من التقوى وتدفع بها الى الندامة.

١٣ – وهاك أخيرًا ما يدهش ويذهل: إنّ كل تمييز أو تباين في المناقب قد ألغي هنا. فإذا تمتّع أحد في هذا العالم بشرف سام، أو وجد في أوج الغنى، وإذا افتخر بحسبه أو بالمجد الذي ناله في هذه الحياة الحاضرة، نراه يتساوى مع المتسوّل ورثيث الثياب أو، كما يحدث أحيانًا، مع الأعمى والأعرج. وهو لا يأنف من ذلك لعلمه أنّ هذا كلّه غير وارد في الأمور الروحيّة حيث نبحث فقط عن استعدادات النفس الطيّبة.

١٤ – ألا تأمّل ما لتلك الأصوات الرهيبة والاستدعاءات المهيبة من فائدة. بيد أنّ الوضع الخارجي والرجلين الحافيتين واليدين المبتهلتين تدلّ على شيء آخر. فكما أنّ الذين يقعون في الأسر الجسدي يشيرون، بوضعهم الخارجي، إلى الأسى الذي أنزلته بهم المصيبة المبتلون بها، كذلك أسرى الشيطان، بوضعهم الخارجي، يشرعون، وقد أشرفوا على الانعتاق من استبداده، متأهّبين لحمل نير المحبّة، في الرجوع بالذكرى الى حالتهم السابقة كي يدركوا ممّن تخلّصوا وإلى من هم متوجّهون، ويجدوا في هذه الفكرة حجّة أخرى ليشكروا الله ويتغذّوا من العواطف الحسنة.

دور العرّاب في المعمودية

١٥ – أتسمح الآن بأن نوجّه الكلام الى الذين يجيبون عنك، لكي يقفوا على أمر المكافأة التي يستحقّون إن هم برهنوا عن اعتناء متزايد بكم وعلى أمر العقاب الذي يجلبه عليهم إهمالهم؟ إفهمني جيّدًا، يا عزيزي، فإنّ الذين يكفلون الآخرين بمبلغ من المال هُم مهدّدون أكثر من المكفول الذي حصل على المال. أمّا إذا برهن المقترض عن استعدادات طيّبة فهو يخفّف من عبء كفيله، وفي حال حدوث عكس ذلك، فهو يوقع به في مصيبة وعرة. لذا ينصح الحكيم بهذا القول: «لا تكفل ما هو فوق طاقتك، فإن كفلت فاهتمّ اهتمام من يفي» [٧]. فإذا كان أولئك الذين يكفلون الآخرين، مقابل مبلغ من المال، يحاسبون عنه بكامله، فكم ينبغي بالأحرى

(٧) إبن سيراخ ٨: ١٦.

على الذين يكفلون الآخرين روحيًّا أن يظهروا تيقّظًا كبيرًا ، لا سيّمَا عندما يتعلّق الأمر ببيان عن الفضائل ، محرّضين وناصحين ومقوّمين الاعوجاج بحنان أبويّ.

١٦ – لا يظنّ أحد من العرّابين أنّ ما يجري هنا عمل تافه. بل فليعلموا جميعًا أنّ السُمعة الطيّبة تتدفّق عليهم إن هم ، بتوبيخاتهم الشخصيّة ، قادوا أولئك الذين تكفّلوا بهم ، الى طريق الفضيلة. أمّا إذا كانوا مهملين ، فسيجرّون على أنفسهم إدانة مبرمة. لذا جرت العادة أن يُدعوا آباء روحيّين ، فيدركوا أهمّية العطف الذي ينبغي لهم أن يشهدوا به أمام أبنائهم ليهذّبوهم بالأمور الروحيّة. وإن كان مستحسنًا أن نحثّ على الفضيلة من ليس لنا بهم صلة ، فكم ينبغي لنا بالحريّ تطبيق هذه الوصيّة على من قبلناه بصفة ابن روحيّ. هكذا تدركون ، إن كنتم مهملين أيّها العرّابون ، أنّ الخطر الذي يهدّدكم ليس بيسير.

رفض الشيطان والانضواء تحت لواء المسيح

١٧ – لنتطرّق الى الأسرار عينها والى العهود التي سوف تبرم مع المعلّم. فكما يحدث في أمور هذه الحياة حين يتحتّم على من يرغب في إيداع ممتلكاته لدى الآخرين أن يحرّر صكًا بينه وبين الذي يتعهّد بها ، كذلك أيضاً يكون الأمر هنا ؛ لأنّ السيّد سوف يأتمنكم لا على ممتلكات أرضية ، فاسدة وزائلة ، بل على ممتلكات روحية وسماوية. في كلامنا على الإيمان ، لا نقصد بموضوعه أمرًا مرئيًّا ، بل الممتلكات التي لا يمكن رؤيتها إلاّ بأعين الروح. والواقع ، أنّ الكلمات التي

تتفوّهون بها على الأرض تُحفر في السماء والالتزامات التي تجهرون بها بلسانكم تثبت راسخة في فكر السيّد.

١٨ – ألا تمعّن في وضع الإنسان المأسور. في بادئ الأمر، يطلب الكهنة الذين يقدّمونك أن تنحني على ركبتيك وترفع يديك إلى السماء وتناجي ربّك على هذا النحو، لكي تتذكّر، بفضل هذا الوضع الخارجي، ممّن أنت معتق وبمن ستتّحد. ويعود الكاهن من ثمّ فيستعرض كلّ واحد منكم مستنطقًا إيّاكم عن الالتزامات والارتباطات، ويجعلكم تتفوّهون بهذه الكلمات الرهيبة، المثقلة بالنتائج المذهلة: «إنّي أرفضك أيّها الشيطان».

١٩ – يخطر ببالي الآن أن أستسلم إلى البكاء والنحيب، لأنّي تذكّرت اليوم الذي فيه اعتبرت أهلاً للتفوّه بهذا الكلام. وإنّي لأرتبك في فكري عندما أسرّح الطرف في ثقل الهفوات التي تراكمت عليّ منذ تلك اللحظة إلى هذا الحين، وينتابني انقباض لمعاينتي العار الذي جلبته على نفسي بإهمالي المزمن. لذا أتوسّل إليكم أن تظهروا رحابة حلم تجاهي. وبما أنّكم سوف تمثلون أمام الملك الذي سيستقبلكم بمزيد من اللطف ويلبسكم الرداء الملكيّ ويمنحكم، فيما إذا كنا نروم الحصول على خيرات روحيّة، كلّ العطايا التي تريدون، مهما كثر عددها أو عظم شأنها، أتوسّل اليكم من جديد أن تسألوا لي حظوة لديه. فليتغاضَ الله عن أخطائنا التي ارتكبناها وليصفح لنا عنها، واهبًا لنا بتنازله عونًا في الزمن الآتي. وكأبناء أعزّاء، لا أشكّ في أنّكم سترفعون هذه الصلاة لمعلّمكم.

٢٠ – لنعد إلى بقيّة حديثنا. عندئذ يهيّئكم الكاهن لهذا القول: «إنّي أرفضك أيّها الشيطان وأرفض مباهجك وأعمالك».

إنّها بضع كلمات، ولكنّها ذات وقع كبير. فالملائكة الحاضرون والقوّاد غير المنظورين يغتبطون لارتدادك متلقّين الكلمات التي نطق بها لسانك ليرفعوها إلى سيّد الخلائق الأوحد، فتدرج في الأسفار السماويّة.

٢١ – هل اطّلعت على بنود العقد؟ فبعد رفض الشيطان وأعماله وكلّ مصالحه، يحملك الكاهن على التصريح من جديد: «إنّي أتّحد بك أيّها المسيح». أرأيت وفرة جودته؟ لقد وهبك كنزًا كبيرًا من الخيرات، هو الذي لم يلق منك سوى كلماتك، ولم يعد يتذكّر ماضيك بل تغاضى عن جحودك السابق كلّه، مكتفيًا بهذه الكلمات الوجيزة.

مسحة الموعوظين وتعميدهم

٢٢ – وبما أنّك قد اعترفت، بعد هذا العقد والرفض والاتّحاد، بسيادة الله واتّحدت الآن بالمسيح بواسطة تلك الكلمات على غرار مقاتل تجنّد في الحلبة الروحية، فسوف يمسحك الكاهن بالزيت الروحي ويختمك معلنًا: يمسح فلان باسم الآب والابن والروح القدس.

٢٣ – فهو يعلم من الآن فصاعدًا أنّ العدو غاضب، يصرّ بأسنانه ويتجوّل كأسد زائر لرؤيته الذين خضعوا في الأمس لاستبداده قد غابوا فجأة متخلّين عنه، والتحقوا بالمسيح منضوين تحت طاعته. لأجل ذلك يمسحكم الكاهن واسمًا إيّاكم بإشارة الصليب لكي يحجب الآخر نظره عنكم. فهو لا يجسر على التحديق بكم مواجهة حين يرى البريق المنبعث من هذه المسحة يشعّ ويعمي

بصره. ومنذ تلك اللحظة، يدخلكم الكاهن، بواسطة هذه المسحة، الحلبة الروحية كأبطال للمسيح لأنّ هنالك معركة ومجابهة ستقومان ضدّه.

٢٤ - ومن ثمّ، ينزع الكاهن ثيابكم مع هبوط الليل، وكما لو كان على وشك إدخالكم السماء بواسطة ما يتمّ هنا، يمسح الجسدَ كلّه بالزيت الروحي ليشدّد بهذه المسحة أعضاءكم كلّها ويجعلها منيعة ضدّ أعمال العدوّ.

٢٥ - وبعد هذه المسحة، ينزلكم إلى المياه المقدّسة، دافنًا الإنسان القديم ومنهضًا «الإنسان الجديد الذي جدّده على صورة خالقه». آنئذ يتمّ، بواسطة يد الكاهن وكلماته، حلول الروح القدس، وإذا بنا أمام إنسان جديد يخرج من المياه مطهّرًا بجملته من دنس خطاياه وتاركًا ثوب الخطيئة القديم ومرتديًا اللباس الملكيّ.

٢٦ - ولكي تدرك أنّ للآب والابن والروح القدس جوهرًا واحدًا، أنظر كيف يمنح سرّ المعمودية. عندما يهتف الكاهن: يعمّد فلان باسم الآب والابن والروح القدس، يغطّس رأس المعتمد ثلاث مرّات في الماء ثمّ يرفعه مؤهّلاً إيّاه بواسطة هذه الرتبة السرّية لاقتبال سكنى الروح القدس. وليس الكاهن فقط من يلمس رأسه، بل يمين المسيح أيضاً. وهذا ما يتّضح من كلام المحتفل، إذ لا يقول: «أنا أعمّد فلانًا»، بل «يُعمّد فلان»، وذلك ليبيّن أنّه خادم النعمة فقط، يمدّ يده لكونه انتدب لهذه الخدمة من قبل الروح. أمّا الذي يكمّل كل شيء فهو الثالوث غير المنقسم الآب والابن والروح القدس. فالإيمان بالثالوث والاعتراف به يهبان نعمة التبنّي ومغفرة الخطايا.

٢٧ – وإنّ ما سوف يجري من أحداث ليجعلنا ندرك ممّن أُعتق أولئك الذين استحقّوا التنشئة في السرّ وما نالوه من نِعَم. فما إن يخرجوا من المياه المقدّسة حتى يبادر الحضور الى مصافحتهم وتقبيلهم وتهنئتهم مشاطرًا فرحهم، هم الذين كانوا قديمًا عبيدًا ومأسورين وأمسوا في لحظة واحدة أناسًا أحرارًا، لا بل أبناء مدعوّين الى المائدة المُلوكيّة. فبعد خروجهم إذن من الماء يقتادون الى المائدة الرهيبة، ينبوع النعم الوفيرة، ليتناولوا جسد الرب ودمه ويصبحوا مسكنًا للروح. لقد لبسوا المسيح وراحوا يظهرون، أنّى توجّهوا، شبهاء بالملائكة الأرضيّين المشعّين كبريق الشمس.

تحريض أخير: أمانٍ وتوسّلات

٢٨ – لم يكن سدى وعن عبث أن سبقت وألقيت تعليم هذه الأمور على محبّتكم، وذلك لكي تتذوّقوا، قبل التمتّع بها، سعادتها الكبرى، ولكي يجنّحكم الأمل منذ الآن، وتزيّنوا أنفسكم بالاستعدادات التي تليق بما سيحدث، وتفطنوا، على حدّ تحريض الطوباويّ بولس، لما هو فوق، وتنتقلوا بفكركم من الأرض إلى السماء، ومن المنظورات إلى غير المنظورات. وبالأعين الروحية نرى بطريقة أوضح ما يعرض لرؤيتنا الحسّيّة.

٢٩ – وبما أنّكم بلغتم الرواق الملكيّ وأوشكتم أن تتقرّبوا من العرش الذي يجلس عليه الملك الموزّع العطايا، ألا برهنوا عن تجرّد كبير في طلباتكم: لا شيء أرضيّ أو بشريّ! اسألوا أمرًا يليق بالمعطي. وعندما تخرجون من المياه الإلهيّة، رامزين بهذا الصعود الى القيامة، اطلبوا من المسيح عهده لكي تحافظوا على العطايا التي

منحكم إيّاها وتبقوا بمنأى عن أحابيل الشيطان. صلّوا من أجل السلام في الكنائس وابتهلوا من أجل الذين ما برحوا في الضلال. أسجدوا على ركبتيكم من أجل الخطأة كي نحظى بتجنّب الخطيئة: فإنّ الذي منحكم ضمانة كبرى وكتب أسماءكم في عداد الأصدقاء الأوائل ورفعكم الى مرتبة التبنّي، أنتم الذين كانوا حتى الآن سجناء وعبيدًا مجرّدين عن كل سلاح، لا يرفض طلباتكم بل يهبكم كل شيء مقتديًا بذلك بالمحبّة التي هي خاصّته.

٣٠ - فبهذه الطريقة إذن تدفعون الله الى مزيد من اللطف. فعندما يرى أنّكم تعتنون بأعضاء الجسد الذي تنتمون إليه وتقلقون لخلاص الآخرين، يتنازل فيهبكم ضمانة كبرى. لا شيء يسرّه أكثر من رؤيته إيّانا محبّين بعضنا بعضاً وعطوفين على إخوتنا ومهتمّين بخلاص قريبنا.

٣١ - يا أحبّائي، استعدّوا في الفرح والحبور، وقد تشرّبتم هذا كلّه، لاستقبال النعمة كي تنعموا بموهبة المعمودية، فنظهر جميعنا مسلكًا لائقًا بالنعمة ونستحقّ نيل الخيرات الأبديّة الفائقة الوصف، بنعمة سيّدنا يسوع المسيح ورأفته الذي له وللآب والروح القدس المجد والقدرة والكرامة، الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور. آمين.

العِظَـةُ الثَّالِثَـة

للخطيب نفسه، عظة موجّهة الى الموعوظين.

الموعوظون. نجوم تمشي على الأرض

١ – تبارك الله! فها قد بزغت نجوم من الأرض تضاهي ببريقها نجوم السماوات. أجل، نجوم على الأرض، لأنّ الذي من السماوات قد ظهر على الأرض. لا، لم تظهر هذه النجوم على الأرض فقط، بل في وضح النهار: هاك الآية الثانية. نجوم تتألّق في النهار أكثر من نجوم الليل. البعض منها يحتجب حين تظهر الشمس، أمّا البعض الآخر فيسطع بلمعان وضّاء عندما تشرق شمس العدل. أرأيت نجومًا تظهر مع الشمس؟

٢ – البعض منها يحتجب عندما يبلغ اكتمال الزمان، والبعض الآخر يزداد إشعاعًا عندما يحين اكتمال الزمان أيضاً. عن النجوم الأولى، يقول الإنجيل: «تتساقط كواكب السماء كما تتساقط أوراق الكرمة»[١]. أمّا عن النجوم الأخرى فيقول: «يضيء الصدّيقون كالشمس في ملكوت السماوات»[٢].

٣ – ما معنى هذا القول: «كما تتساقط أوراق الكرمة، هكذا

---

(١) متّى ٢٤ : ٢٩؛ أشعيا ٣٤ : ٤. (٢) متّى ١٣ : ٤٣.

تتساقط نجوم السماء»؟ طالما أنّ الكرمة تغذّي العناقيد، فهي في عوز إلى حماية الأوراق. فما إن تضع ثمارها حتى تنزع معطف الأوراق عنها. وهكذا يكون الأمر بالنسبة الى العالم بأجمعه: طالما أنّه يحضن الجنس البشري، فالسماء تحتفظ بكواكبها كما تحتفظ الكرمة بأوراقها. أمّا في الأزمنة الآتية حيث لا وجود لليّل، فلا حاجة من بعد الى الكواكب.

٤ – وكما أنّ طبيعة الكواكب مكوّنة من النار، كذلك أيضاً طبيعة تلك الكواكب. فمن جهة نار حسّية، ومن جهة أخرى نار عقلية، لأنّه قيل: «فهو يعمّدكم بالروح القدس والنار»[٣]. هل تودّ الاطلاّع على أسماء البعض منها؟ كواكب السماء تحمل الأسماء التالية: أوريّون (نجمة الشرق)، أركتوروس، أسبروس (نجمة المساء) وفوسفوروس (نجمة الصباح). أمّا أسماء الكواكب الموجودة أمامنا، فلا يوجد بينها كواكب مسائيّة (إسبروس)، بل جميعها كواكب صباحيّة (فوسفوروس).

نِعَم المعموديّة العديدة

٥ – لنردّد من جديد: «تبارك الله الصانع المعجزات وحده»[٤]، الذي يخلق كلّ شيء ويجدّده. فالذين كانوا في الأمس أسرى، أضحوا اليوم أناسًا أحرارًا ومواطنين في الكنيسة. وأولئك الذين كانوا قبلاً في عار الخطيئة، أمسوا الآن في الجرأة والبرّ. فليسوا هم فقط أحرارًا، بل قدّيسون، وليسوا هم فقط

(٣) متّى ٣: ١١. (٤) مز ٧١: ١٨.

قدّيسين، بل أبرار؛ وليسوا هم فقط أبرارًا، بل أبناء؛ وليسوا هم فقط أبناء، بل ورثة؛ وليسوا هم فقط ورثة، بل إخوة المسيح؛ وليسوا هم فقط إخوة المسيح، بل ورثة معه؛ وليسوا هم فقط ورثة معه، بل أعضاؤه؛ وليسوا هم فقط أعضاءه، بل هياكل؛ وليسوا هم فقط هياكلَ، بل أدوات الروح...

٦ - «تبارك الله الصانع المعجزات وحده». أرأيت كم يبلغ عدد مواهب المعمودية؟ في حين يعتقد الكثيرون أنّ مغفرة الخطايا هي موهبة المعمودية الوحيدة، ذكرنا نحن حتّى الآن عشرةَ أمجاد منحتها المعمودية. لهذا السبب نعمّد الأطفال الصغار، رغم غياب الخطايا، لكي يُمنحوا القداسة والبرّ والميراث والأخوّة والعضوية في المسيح، ويصيروا مسكنًا للروح القدس.

٧ - معكم إذن، يا إخوتي الأحبّاء، إن جاز لي أن أدعوكم إخوة، اشتركت في الولادة عينها، ولكنّني في ما بعد فقدت، بإهمالي، هذه الأخوّة الكاملة الحقيقيّة. ومع ذلك، دعوني أنادِكم إخوة من أجل المحبّة التي أخصّكم بها، وأحثّكم على أن تشهدوا لحماسةٍ أكبر على قدر ما نلتم من شرف عظيم.

مصارعة الشرّير

٨ - إنّ الزمن الذي سبق معموديّتكم كان بمثابة مدرسة للتمرّس حيث المغفرة عن كل خطيئة. وابتداء من اليوم، سوف تشرع الحلبة أبوابها أمامكم لأنّ المعركة قد ابتدأت. إنّ نظر الجمهور عليكم، جمهور الشعب، وطغمات الملائكة تتأمّل أيضاً معارككم. لقد خاطب بولس الكورنثيين قائلاً: «قد صرنا مشهدًا للعالم

والملائكة والبشر»[٥]. فالملائكة إذن يراقبوننا وربّ الملائكة يرئس المعركة. ليس هذا لنا شرفًا وحسب بل ضمانة، إذ عندما يكون من أسلم روحه عنّا حَكَمًا في هذه الهجومات، فأيّ شرف وأيّة ضمانة هما لنا هنا؟

٩ – في المعارك الأولمبيّة، يتوسّط الحكَم الفريقين دون أن ينحاز لأحد منهما، منتظرًا النتيجة. وإن هو وقف بين الاثنين، فذلك أنّ حكمه موزّع بينهما. أمّا المسيح فلا يتوسّط الفريقين في المعركة التي نجابه فيها الشرّير، بل يكون لنا بكلّيّته. إنّه لا يتوسّط الفريقين بل يكون بكلّيّته معنا؛ كيف يكون ذلك؟ ألا انظر بالحريّ كيف مسحنا عندما دخلنا المعركة وقيّد الآخر. لقد مسحنا بزيت البهجة وقيّده بأغلال لا تتحطّم ليشلّ هجماته. أمّا أنا، فإذا حصل لي أن تعثّرت، فهو يمدّ لي يده ويجعلني أنتصب، منتشلاً إيّاي من سقطتي، لأنّه قيل: «دوسوا الحيّات والعقارب وقوّة العدّو»[٦].

١٠ – إنّ الشيطان، بعد انتصاره، تتهدّده جهنّم. أمّا أنا إذا انتصرت، فسأحظى بالإكليل. وإن هو انتصر، يعاقب. لكي تعلم أنّه يعاقب إذا ما انتصر، سوف أريك ذلك بمثال: لقد غلب آدم وجعله يسقط، فما كانت مكافأة انتصاره؟ «على صدركِ تسلكين وترابًا تأكلين طوال أيّام حياتك»[٧]. فإذا كان الله قد عاقب بقسوة شديدة الحيّة الحسّية، فأيّ عقاب سينزله بالحيّة الروحيّة؟ وإذا كانت هذه دينونة الأداة، فمن الواضح أنّ عقابًا مرعبًا ينتظر المحرّك. فكما

(٥) ١ كور ٤ : ٩.
(٦) لو ١٠ : ١٩.
(٧) تك ٣ : ١٤.

أنّ الأب المحبّ الذي يقبض على قاتل ابنه لا يكتفي بمعاقبة المجرم بل يحطّم سيفه، هكذا المسيح، عندما عثر على الشيطان القاتل، لم يعاقبه فحسب، بل كسر سيفه أيضاً.

١١ – فلنتشدّد إذن ولنتجرّد عن ثيابنا لأنّ المسيح قد ألبسنا. لهذه الهجومات، أسلحة أكثر تألّقًا من الذهب وأكثر متانة من الفولاذ، أكثر مضاء وحدّة من النار وأكثر خفّة من الهواء. فإنّ من طبيعة هذه الأسلحة أنّنا لا نلتوي تحت ثقلها لأنّها تعطي أجنحة وتخفّف أعضاءنا. وإذا أردت النفاذ معها الى السماء فليس هنالك من عقبة: طبيعة الأسلحة جديدة لأنّ المعركة هي من نوع جديد. إنّي مضطر، أنا الإنسان، إلى توجيه الضربات الى الشياطين والمجاهدة، أنا المرتدي الجسد، ضدّ القوات غير الجسدية. لذلك صنع لي الله ترسًا ليس من المعدن بل من البرّ، وأعدّ لي درعًا ليس من البرونز بل من الإيمان. إنّي لأقبض بيدي سيفًا حادًّا هو كلام الروح. إليك ما يُعلِمُنا عنه أنّه محتال: إنّ النبّال لا يجسر على الاقتراب بل يقذف من بعيد.

قوّة دم المسيح

١٢ – ولكن ماذا؟ أولَم يُعدّ لك الله سوى سلاح واحد؟ كلاّ، لقد أعدّ سلاحًا أقوى من أيّ سلاح آخر، فيجب عليك من ثمّ ألاّ تجهد نفسك في المعركة، بل ينبغي أن يكون نصرك نصرَ إنسان أصاب شبعه بفرح. فإذا شاهدك (الشيطان) عائدًا من وليمة الرب، كمن يشاهد أسدًا ينفخ بفمه النار، يفرّ بأسرع من البرق. وإذا أريته لسانك المصطبغ بالدم وفمك الملوّن بالأرجوان، يعود لا يقوى على

الصمود، بل يولّي مدبرًا بخطى سريعة، مثل حيوان أحمق.

١٣ – أتودّ أن تقف على قوّة ذاك الدم؟ لنعد الى ما كان يرمز إليه في القصص القديمة، الى ما حصل في مصر. كان الله على وشك ضرب مصر بالمصيبة العاشرة والقضاء على أبكار المصريّين لأنّهم احتجزوا شعبه البِكْرَ، فما كان عليه أن يفعل حتى لا يضرب اليهود مع المصريّين، وكلاهما يسكنان المكان عينه؟ ألا أدرك قوّة الرمز كي تعي قدرة الحقيقة. ها قد أوشكت الضربة الآتية من عند الله أن تشقّ السماء وها هوذا الملاك المبيد يجول حول البيوت.

١٤ – فماذا فعل موسى؟ لقد قال: «إذبحوا حملاً لاعيب فيه والطخوا بالدم أبوابكم». فما تقول أنت؟ هل يستطيع حيوان أعجم أن ينقذ أناسًا عقلاء؟ نعم، يقول موسى، لا لكونه دمًا بل لأنّه يرمز الى دم الرب. فكما أنّ تماثيل الأباطرة التي لا نفس فيها ولا إحساس تصون أولئك الذين يتمتّعون بنفس وإحساس ويستنجدون بها لا لكونها مصنوعة من البرونز بل لأنّها تمثّل صورة الإمبراطور، كذلك أيضاً أنقذ هذا الدمُ الفاقد النفس والإحساس بشرًا ذوي نفس لا لكونه دمًا بل لأنّه يرمز مسبّقًا إلى دم الرب.

١٥ – في ذلك النهار يرى الملاك المبيد الدم المرشوش على الأبواب، فلا يجسر على الدخول. أمّا الآن، فإذا رأى الشيطان دم الحقيقة مرسومًا على شفاه المؤمنين التي أمست بابًا لمعبد المسيح، وليس دم الرمز القديم المرشوش على الأبواب، يحجم عن التدخّل. وإذا كان الرمز قد أوقف الملاك، فكم بالأحرى ترغم الحقيقةُ الشيطانَ على الفرار.

نشأة الكنيسة من جنب المسيح

١٦ – أتودّ أن تقف بطريقة أخرى على قوّة هذا الدم؟ ألا انظر من أين راح يتدفّق ومن أين استمدّ مصدره: إنّه ينحدر من على الصليب، من جنب الرب. فما إن أسلم يسوع روحه، كما يقول الإنجيل، وهو بعد على الصليب، حتى اقترب منه الجندي وفتح جنبه بضربة من حربته، فخرج منه ماء ودم. يرمز الماء الى المعمودية والدم الى الأسرار. لأجل ذلك لم يقل الإنجيليّ: «وخرج دم وماء»، بل خرج الماء أوّلاً ومن ثمّ الدم، لأنّ المعمودية تأتي أوّلاً وتليها من ثمّ الأسرار. لقد فتح هذا الجندي إذن جنبه مخترقًا سور الهيكل المقدّس، أمّا الذي عثر على الكنز واغتنى به فهو أنا. تلك كانت حال الحمل، فقد ذبح اليهود الضحية والذي جنى الخلاص، ثمرة هذه الضحية، إنّما هو أنا.

١٧ – «وخرج من جنبه ماء ودم». لا تكن غير مكترث، يا عزيزي، بأمر السرّ، فإنّ لديّ أيضاً تفسيرًا سريًّا آخر أسوقه إليك. لقد سبقت وقلت إنّ هذين الماء والدم هما رمز المعمودية والأسرار لأنّ الكنيسة ولدت من هذين السرّين، بواسطة «غسل الميلاد الثاني والتجديد في الروح القدس»[٨]، أي بالمعمودية والأسرار. والحال أنّ رموز المعمودية والأسرار قد انبثقت من جنبه. وهكذا خلق المسيح الكنيسة من جنبه تمامًا كما خلق حوّاء من جنب آدم.

١٨ – لذا يضع موسى على لسان الإنسان الأوّل، في سياق حديثه عنه، هذا القول: «إنّها عظم من عظامي ولحم من لحمي»،

---

(٨) تيط ٣: ٥.

مشيرًا بذلك الى جنب السيّد. فكما أنّ الله أخذ قطعة من جنب آدم وجبلها امرأة، كذلك وهبنا المسيح من جنبه الدم والماء لبناء الكنيسة. وكما أنّ هذا الاقتطاع قد حصل إبّان نشوة نوم آدم، كذلك منحنا الآن، وبعد موته، الدم والماء (الماء أوّلاً ويليه الدم). فما الموت إلاّ تلك النشوة، فتعلم من الآن فصاعدًا أنّ الموت ليس سوى رقاد.

١٩ – أرأيتم كيف اتّحد المسيح بعروسه وبأيّ قوت يغذونا جميعًا؟ لقد كوّننا هذا القوت عينه وبه اغتذينا. فكما أنّ المرأة تغذّي بدمها الخاص وحليبها ذاك الذي ولدته، هكذا أيضاً يغذّي المسيح دائمًا بدمه الخاص أولئك الذين ولدهم.

٢٠ – وهكذا فلنتحلّ، وقد نعمنا بهبات جمّة، بهمّة عالية متذكّرين العهود التي قطعناها معه. أتوجّه إليكم جميعًا، إلى أولئك الذين نالوا التنشئة والذين حصلوا عليها منذ سنوات خلت، فالجميع معنيّ بكلامي، لأنّنا جميعنا قطعنا عهدًا مع المسيح، لا بالمداد بل بالروح، ولا باليراع بل بالكلام. ذاك ما يقوم مكان القلم في الاتفاقيّات مع الله، ممّا حدا داود على القول: «لساني قلم كاتب رشيق». لقد اعترفنا بسيادة الله ورفضنا طغيان الشيطان. ذاك هو الاتفاق والعقد والصك.

٢١ – ولنسهر لئلاّ نقع ضحيّة الميثاق القديم. جاء المسيح مرّة، فوجد أنّ صكّ الأجداد قد ذيّله آدم لأنّه هو أوّل من استدان، أمّا نحن فقد أثقلتنا تلك الاستدانة بالهفوات اللاحقة، فجلبت علينا اللعنة والخطيئة والموت والدينونة بالناموس. بيد أنّ المسيح أبطل

ذلك كلّه مسامحًا إيّانا. يقول بولس في هذا الصدد: «لقد محا المسيح الصكّ المكتوب علينا الذي كان ضدّنا بأحكامه، وأزاله مسمّرًا إيّاه على الصليب»[٩]. فهو لا يقول: محاه أو شطبه، بل «سمّره على الصليب» لكي لا يبقى منه أثر ما. لأجل ذلك لم يمحُه بل مزّقه. هي مسامير الصليب التي مزّقته، في الحقيقة، وأتلفته حتّى تنزع عنه، في المستقبل، مفعوله.

٢٢ – إنّ الدين لم يسدّد خفية أو في مكان منعزل، بل في وسط المسكونة ومن أعلى المنصّة. فليتأمّل ذلك الملائكة ورؤساء الملائكة وكل القوّات العلويّة، يقول المسيح، وليتأمّل أيضاً الشياطين الأشرار وإبليس نفسه، أولئك الذين أرغمونا على الاستدانة وأوقعونا ضحيّة المرابين: لقد فسخ العقد حتّى لا يقووا بعد الآن على مهاجمتنا.

تشبيه المعمودية بالخروج من مصر

٢٣ – وبما أنّ العقد الأوّل قد مزّق، فلنحرص ألاّ نبرم عقدًا جديدًا، إذ إنّه لم يعد هناك من صليب ثان ولا حتّى من مغفرة ثانية بواسطة المياه المجدّدة. إنّ المغفرة، ولا شكّ، موجودة، غير أنّه لا وجود لمغفرة ثانية بالمعمودية. إنّي أتوسّل إليك ألاّ تستسلم الى الإهمال. فإذا كنت قد خرجت من مصر، فلا تسعَ، من جديد، أيّها الإنسان، في العودة إليها وإلى بؤسها. لا تعد تفكّر بالفخّار والقرميد، فأمور الحياة الحاضرة مصنوعة من الفخّار والقرميد، لأنّ التبر، قبل استحالته ذهبًا، لم يكن سوى تراب.

---

(٩) كول ٢: ١٤.

٢٤ – اليهود عاينوا الآيات، وأنت بدورك سوف تعاين أعظم وأبهى من تلك التي رآها اليهود غبّ خروجهم من مصر. إنّك لم ترَ فرعون يغرق مع جيشه، غير أنّك لمحت الشيطان تبتلعه اللجّة مع سلاحه. اليهود عبروا البحر، وأنت اجتزت الموت. هم أعتقوا من المصريين، وأنت تحرّرت من الشياطين. هم هجروا عبودية البربريّ، وأنت أفلتّ من عبودية أكثر ضنكًا، عبودية الخطيئة.

٢٥ – أتودّ أن تعلم بطريقة أخرى أنّك أنت هو الذي كُرّم بحظوات أعظم؟ فاليهود لم يستطيعوا أن يحدّقوا بوجه موسى الممجّد، هو الذي لم يكن سوى واحد منهم في خدمة السيّد نفسه، أمّا أنت فقد عاينت وجه المسيح في مجده. لذا هتف بولس: «نحن جميعًا، والوجه سافر، نعكس كما في مرآة مجد الرب»[١٠]. فإذا كان لديهم المسيح مرافقًا، فكم بالأحرى سيسير معنا نحن الآن. لقد كان يرافقهم بنعمة موسى، أمّا نحن، فليس بنعمة موسى وحسب، بل بطاعتكم الخاصّة. إنّ الصحراء، بالنسبة الى اليهود، أتت بعد مصر. أمّا بالنسبة إليك فهنالك السماء بعد الخروج. مرشدًا وقائدًا عظيمًا كان لهم موسى، أمّا نحن، فلدينا موسى آخر هو الله نفسه الذي يرشدنا ويقودنا.

٢٦ – فما كانت يا ترى حجّة موسى؟ يقول الكتاب المقدّس إنّ موسى كان أجود رجال الأرض. يمكننا، والحال هذه، أن نخلع، دون مغالطة، هذه الصفة على «موسانا» (المسيح)، لأنّ الروح القدس المساوي له في الجوهر قد آزره. لقد رفع موسى يديه الى

---

(١٠) ٢ كور ٣ : ١٨.

السماء واستمطر الخبز الملائكي الذي هو المنّ. أمّا «موسانا» (المسيح) فقد رفع يديه الى السماء واستنزل علينا القوت الأزليّ. ضرب موسى الصخرة وأنبع منها أنهار ماء، أمّا هو فقد لمس الطاولة الروحية وأفاض منها ينابيع الروح. هذه علّة توسّط الطاولة كنبع ماء يَهرع اليه من كل صوب القطعان وينهلون من فيضانه الخلاصيّ.

٢٧ – فبمَا أنّ لدينا مثل هذا النبع وسبيل حياة أيضًا، وبما أنّ الطاولة تزخر بألوف الخيرات وتغمرنا بالحظوات الروحية، فلنتقدّم بقلب صادق وضمير نقيّ لكي نحصل على النعمة والتقوى، فنستنجد بهما في الوقت المناسب، بنعمة ابن الله الوحيد ورحمته، ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح الذي له ولأبيه ولروحه القدّوس المجد والإجلال والقدرة، الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور. آمين.

العِظَـةُ الرّابعَـة

للخطيب نفسه، متوجّهًا الى الموعوظين، وفي معنى كلام الرسول: «ان كان أحدٌ في المسيح فهو خليقةٌ جديدة. قد مضى القديم وها إنّ كلّ شيء قد تجدّد» (٢ كو ٥ : ١٧).

المعمَّدون الجدد هم فرح الكنيسة

١ – أرى اليوم أنّ فرحًا يعمّ اجتماعنا، خلافًا للعادة، وأنّ كنيسة الله تبتهج بأولادها. فعلى غرار الأمّ التي تبتهج متهلّلة، وقد طفر قلبها من الفرح لرؤيتها أولادها يحيقون بها، هكذا الكنيسة في أمومتها الروحية تجذل وتغتبط حين تعاين أولادها، وتجد نفسها كالحقل المخصاب الحاوي سنابل روحية. ألا تأمّل، يا عزيزي، فيض النعمة، فإنّ الأمّ الروحية تضع في ليلة واحدة عددًا كبيرًا من الأولاد. وما من شيء يدعو الى الدهشة! تلك هي الولادة الروحية التي لا تفترض زمنًا معيّنًا أو دورة شهر.

٢ – لنفرح نحن أيضاً معها ولنشاطرها حبورها. فإذا كان هناك فرح في السماء من أجل خاطئ يتوب، فكم يتعيّن علينا بالحريّ أن نبتهج ونفرح بجمع غفير يتوب، ونمجّد الله في حبّه للبشر وإحسانه الذي لا يُسبر. فإنّ عظمة إحسانات الله تفوق، في الحقيقة، كل تعبير. أيّ عقل أو أي فكر أو منطق بوسعه أن يفقه فرط محبّة الله وغزارة إحساناته التي لا توصف، تلك التي وهبها للجنس البشري؟

٣ – فأولئك الذين كانوا البارحة أو قبل البارحة عبيدًا

للخطيئة، تحت طغيان الشيطان، معتقلين ومجرورين من هنا وهناك، دون أيّة ضمانة، أمسوا اليوم في عداد الأبناء، وأزاحوا عنهم ثقل خطاياهم مرتدين الثوب الملكي. بضيائهم يتحدّون السماءَ، فنراهم متألّقين أفضل من النجوم، يبهرون بالنور وجه المحدّقين بهم. فالنجوم لا تتألّق إلّا في الليل، لذا يتعذّر علينا أن نراها متألّقة في وضح النهار. أمّا هؤلاء، فالنهار لا يطفئ تألّقهم لأنّهم بمثابة نجوم روحيّة تتحدّى ببريقها الشمس نفسها، لا بل تفوقها لمعانًا. فإذا كان المسيح قد لجأ إلى صورة الشمس ليظهر تألّق الأبرار في الدهر الآتي، وقال «إنّ الأبرار يضيئون كالشمس»[1]، فهذا لا يعني أنّهم سيضيئون كلمعان الشمس فقط. لقد استعان المسيح بهذه الصورة، لأن ليس هناك من سبيل إلى مثال حسّي آخر غير الشمس، وذلك لكي يشير الى حال الأبرار.

٤ – فلنقبّل إذن في هذا النهار هؤلاء الإخوة الذين عرفوا أن يتألّقوا كالنجوم ويتحدّوا ببريقهم شعاع الشمس. ولا نكتفينّ فقط بأن نضمّهم الى أحضاننا ضمًّا ماديًّا، بل فلنظهر لهم أيضاً، عن طريق هذا التعليم الروحي، ما نكنّ لهم من عطف، محرّضين إيّاهم على تأمّل فيض سخاء المعلّم وبهاء الثياب التي استحقّوا ارتداءها. «فإنّكم أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح قد لبستم»[2]، على ما يقول الرسول. لذا، فليعملوا كل شيء من الآن فصاعدًا وليتصرّفوا أينما وجدوا كأناس يتّخذون مسكنًا لهم المسيحَ خالق الكون وسيّد الطبيعة. عندما أذكر المسيح، أعني أيضاً الآب والروح القدس،

---

(١) متّى ١٣ : ٤٣. (٢) غلا ٣ : ٢٧.

لأنّ المسيح نفسه قد وعد قائلاً: «إن أحبّني أحد يحفظ كلمتي وأبي يحبّه، وإليه نأتي وعنده نجعل مقامنا»[٣].

٥ – إنّ هذا الإنسان، في سيره على الأرض، يمسي كالذي يحيا في السماء، ويوجّه تفكيره ونظره الى الأمور العلوية، مستهزئًا بأحابيل الشيطان الشرّيرة. فإنّ الشيطان، لدى رؤيته هذا التحوّل، يعود مضطربًا عندما يدرك أنّ الذين كانوا قبلاً تحت سيطرته، قد رفعوا إلى مثل هذه المرتبة، وكرّموا بشرف عظيم من لدن السيّد، لا يتجاسر على التحديق بهم وجهًا لوجه لأنّه لا يتحمّل البريق المنبجس من هذا المصدر. لقد أعمى البريق الذي نثره هذا الأخير عينيه، فأدار ظهره وانصرف.

٦ – فأنتم إذن، يا جنود المسيح الجدد، أنتم الذين اكتتبوا اليوم في مدينة السماء ودعوا الى هذه الوليمة الروحية ليشتركوا في الطاولة الملكية، ألا برهنوا عن حميّة توازي عظمة العطايا لكي تستمطروا عليكم وفرةً من النعم العلوية. إنّ سيّدنا لصالح: فإذا رأى فينا عرفان جميل نحو العطايا التي حصلنا عليها واعتناء متيقّظاً بالسهر على عظمة تلك العطايا، فهو يفيض النعمة، وإذا قدّمنا شيئًا من ذاتنا، فهو يضاعف من جهته الهدايا التي يكرّمنا بها.

بولس، مثال لكلّ معمّد جديد

٧ – ألاانظروا حال بولس، معلّم المسكونة. فلقد كان، في البداية، يطارد الكنيسة جائلاً في كل مكان، يلاحق الرجال

(٣) يو ١٤ : ٢٣.

والنساء، زارعًا البلبلة والاضطراب ومظهرًا غيظاً متأجّجًا. بيد أنّه لمّا أفاض عليه السيّد عطفه وأناره بضياء المعرفة، تخلّى عن ظلمة الضلال معتنقًا الحقيقة. وفي الحال، اغتسل بالمعمودية، دونما تأخّر، من كل خطاياه السابقة، هو الذي كان يعمل كل شيء من أجل اليهود وينهب الكنيسة، وأفحم من ثمّ اليهود القاطنين في دمشق، معلنًا أنّ المصلوب هو ابن الله الخاص.

٨ – أرأيت نزاهة تلك النفس؟ أرأيت كيف يبيّن لنا بمسلكه أنه كان قبلاً يتصرّف عن جهل؟ أرأيت كيف يعلّمنا جميعًا من خلال اختباره للأحداث أنّه استحقّ السير على طريق المعرفة والتنعّم بالخيرات العلوية؟ فعندما يصادف الله المحبّ نفسًا نزيهة تتيه في الجهل، فهو لا يحتقرها ولا يتركها طويلاً من دون أن يظهر لها عنايته، بل يوظّف من جهته كل الوسائل من غير أن يغفل ما يقود الى خلاصنا، بشرط أن نكون نحن أهلاً لاستمطار وفير لنعمة الله العلوية، على غرار ما فعل الرسول الطوباويّ.

٩ – فكل ما فعله، إنّما فعله عن جهل (لقد كان يعتقد أنّه إذا ما طارد بحماسةٍ من أجل الشريعة سيرمي كل الأنفس في البلبلة والفوضى). وما إن علم من المشترع نفسه أنّه ضلّ الطريق وأنّه كان يسير نحو الهلاك من غير أن يعي ذلك، حتى تخلّى، وقد استضاء بنور المعرفة، عن ضلاله السابق، دونما إبطاء أو تردّد، وأضحى بشير الحقيقة. فأوّل الذين رغب في أن يردّهم الى طريق التقوى، إنّما كانوا ممّن بعثت اليهم الرسائل التي حملها من قبل الكهنة، على نحو ما قال في عظته أمام جمهور اليهود: «كما يشهد لي بذلك رئيس الكهنة وجميع مجلس الشيوخ؛ بل أخذت منهم رسائل الى الإخوة،

وانطلقت الى دمشق لأجيء أورشليم بمن هناك من هذا المذهب موثقين، فيعاقبوا»[٤].

١٠ – أرأيت بولس كيف يجول كالأسد الزائر في كل اتّجاه؟ ها هوذا الآن كالحمل الوديع: فما أمر هذا التبدّل الفجائي؟ ألا انظر ذاك الذي كان في ما مضى يلاحق كل المؤمنين بالمسيح ويطاردهم مقيّدًا إيّاهم وراميًا بهم في السجون. ألا انظره، وكليّته للمسيح، يتدلّى في سلّ من على الأسوار حتى يتسنّى له الإفلات من فخاخ اليهود. أنظره أيضاً في مناسبة أخرى يقصد قيصرية ليلاً ومن هناك يُيمّم شطر طرطوس كي لا يمزّقه حنق اليهود. أرأيت، يا عزيزي، كم تبدّل ولِمَ هو تحوّل؟ أرأيت كيف أسهم بوفرة ممّا عنده، أعني به الغيرة والحماسة والإيمان والشجاعة والصبر وكبر النفس والثبات الذي لا ينثني، وذلك بعد أن نعم بالسخاء العلويّ؟ لذا استحقّ معونة كبرى من علُ، ممّا حمله على القول: «تعبت أكثر منهم جميعًا، ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي»[٥].

١١ – أتوسّل إليكم أن تقتدوا بهذا المثال، أنتم الذين استحقّوا أن يحملوا نير المسيح ويحصلوا على نعمة البنوّة. منذ خطواتكم الأولى، برهنوا عن حميّة وإيمان كبيرين في المسيح. حينئذ تستمطرون من العلاء نعمة وفيرة، مضفين على الثوب الذي حصلتم عليه مزيدًا من التألّق، وتنعمون بدفق من عطف السيّد. فإنّكم إذا كنتم، وأنتم لم تأتوا حتى الآن بأيّ عمل صالح لكونكم مثقلين بحمل من الخطايا، قد أهّلتم لهذه العطايا من قبل الذي لم يكتف، اقتداء

(٤) أع ٢٢ : ٥.
(٥) ١ كور ١٥ : ١٠.

منه بطيبته الخاصّة ، بأن يعتقكم من الخطايا ويبرّركم بنعمته ، بل قدّسكم وجعلكم أبناء له ، وإذا كنتم منه قد نلتم الهبات ، فكيف لا تُعدّون أهلاً لسخاء جديد ، على ما تبذلون من جهد ضئيل ، وأنتم تظهرون دقّة صارمة في مسيرة حياتكم وفي الحفاظ على ما اقتنيتم من عطايا؟

الإيمان بالمسيح والمعمودية هما خلق جديد

١٢ – لقد سمعتم اليوم صوت الطوباويّ بولس ، خطيب الكنيسة ، يكتب لنا ويقول : «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة»[٦] . ولكي لا نتأوّلَ هذه العبارةَ على أنّها خليقة محسوسة ، استدرك قائلاً : «إن كان أحد في المسيح» ، وهذا ليعلّمنا أنّ من يرينا الخليقة الجديدة إنّما هو معتنق إيمان المسيح . فقل لي : هل في رؤية سماء جديدة وجزء من الخليقة يتجدّد فائدة تساوي المنفعة في أن نرى إنسانًا يعبر من الرذيلة الى الفضيلة فيتخلّى عن الضلال ويتمسّك بالحقيقة؟ ذاك ما دعاه الرسول الطوباويّ خليقة جديدة . ولذا أضاف على الفور : «فالقديم قد اضمحلّ وكل شيء قد تجدّد» ، مظهرًا في النهاية أنّ الذين تحرّروا ، على غرار من يخلع ثيابه العتيقة ، من ثقل خطاياهم بالإيمان بالمسيح وأُعتقوا من الضلال مستنيرين بشمس العدل ، قد لبسوا ثيابًا جديدة برّاقة ، ألا وهي الثياب الملكيَّة ؛ لهذا السبب يقول بولس : «إن كان احد في المسيح فهو خليقة جديدة ، فالقديم قد اضمحلّ وكل شيء قد تجدّد» .

---

(٦) ٢ كور ٥ : ١٧ .

١٣ – فكيف لا يكون كل شيء جديدًا عندما يعتنق فجأة الاعتدالَ وشظفَ الحياة من كان يعيش البارحة وقبل البارحة في الرخاوة والتطرّف؟ وكيف لا يكون كل شيء جديدًا وخارقًا عندما يسيطر فجأة من كان يعيش حتى الآن في الخلاعة، على أهوائه، منهكًا قواه في لذّات الحياة الحاضرة، ويتمسّك بالاعتدال والنقاوة وكأنّه لم يعد مغلقًا عليه في جسد؟

١٤ – أرأيت أنّ ما حدث هنا هو في الحقيقة خلقٌ جديد؟ لقد ولجت نعمة الله، فأعادت نحت النفوس وبدّلتها، فجعلت منها غيرَ ما كانت عليه، لا بتحويل الطبيعة بل بتغيير الإرادة. فهي لا تسمح البتّة لمحكمة أعين الروح بأن تحكم خلافًا للحقائق. بيد أنّها تُجيز للنظر، وكأنّها أزاحت عنه الغشاوة، أن يرى بدقةٍ بشاعة الرذيلة وقبحها وجمال الفضيلة وضياءها.

١٥ – أرأيت المعلّم كيف يُنجز كل يوم خلقًا جديدًا؟ قل لي: مَنْ غيره عرف كيف يُقنع الإنسان الذي غالبًا ما أمضى حياته في لذّات هذا العالم، عابدًا أصنام الحجر والخشب ومعتبرًا إيّاها آلهة، بأن يرقى فجأة الى درجة من الفضيلة بحيث يحتقرها الآن ويسخر منها معتبرًا الحجارة حجارةً والخشب خشبًا، لأنّه يعبُد خالق المسكونة ويؤمن به فوق أمور هذه الحياة كلّها؟

١٦ – أرأيت كيف أنّ الإيمان بالمسيح والعودة إلى الفضيلة يُدعيان خلقًا جديدًا؟ فأتوسّل إليكم، أنتم الذين نالوا التنشئة قديمًا، وأنتم الذين استحقّوا نعمة المعلّم، أن نصغي جميعنا الى تحريض الرسول الذي يقول لنا: «إنّ القديم قد اضمحلّ وأضحى

كل شيء جديدًا»[٧]. لننسَ ماضيَنا كلّه ولنُنجز هذا التحوّل في حياتنا كمواطنين مدعوّين الى حياة جديدة، ولنتأمّل من خلال أقوالنا وأفعالنا كلِّها كرامةَ الساكن فينا.

ينبغي للمعمّد الجديد أن يُشعّ ببهاء مسلكه

١٧ – ثَـمّـةَ أناسٌ ممّن يزاولون مهامَّ زمنية ويحملون، في أغلب الأحيان، على ما يرتدون من ثياب علامةَ الصور الملكية، يلقون الاحترام بالنظر الى هذا الواقع من أعين الجميع، فلا يرضون بأن يُقدموا على ما من شأنه أن يحطّ من قدر الثياب التي تحمل العلامات الملكية. وإذا ما حدّثتهم نفسهم بالقيام بهذا الأمر، فإنّ هناك من يردعهم عنه. وإذا رام هذا أو ذاك أن يسيء معاملتهم، فإنّهم يجدون في ما يرتدون من ثياب ضمانة كفيلة بأن تردأ عنهم كل أمر مشين. أمّا الذين يحملون دومًا المسيح لا منقوشًا على ثياب بل في نفوسهم، ومع المسيح، أباه وحضورَ الروح القدس، فحريّ بهم حقًا أن يُبرهنوا عن ثقةٍ متينة، مُظهرين أمام الجميع، باستقامة مسلكهم ومراقبة حياتهم، أنّهم يحملون الصورة الملكية.

١٨ – فكما أنّ الجميع يعترفون بالذين يعلّقون على ثيابهم الصور الملكية، كذلك نحن الذين لبسوا المسيح دفعةً واحدة واستحقّوا أن يمتلكوه على الدوام، نستطيع، اللهمّ إذا ما كان لنا في الأمر أدنى رغبة، وحتى من غير أن نتفوّه ببنتِ شفة، أن نُظهرَ بواسطةِ استقامةحياتِنا قُدرةَ ذاك الذي يسكُن فينا. وكما أنّ تهدُّل ثيابِكم

(٧) ٢ كور ٥: ١٧.

وبريقَها يجذُبان كلَّ الأنظار، كذلك يُمكنكم، اللهمّ إذا ما رغبتم في ذلك، وعن طريق مسلك واجتهاد بحسب الله وبشرط أن تحافظوا على بريقِ هذا الثوب الملكيّ على نحو أشدَ ممّا هو عليه الآن، أن تجتذبوا إليكم كل الذين يرَونكم وأنتم تظهرون الحميّة عينها وتمجّدون المعلّم.

١٩ – لهذا السبب قال المسيح: «ليضئ نوركم قدّام الناس ليرَوا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات»[(٨)]. أرأيت كيف أنّه يدعونا إلى بعث النور الذي فينا ليس فقط بواسطة الثياب بل عن طريق الأعمال أيضاً. فبعد أن قال: «ليضئ نوركم»، أضاف: «ليرَوا أعمالكم الصالحة». فالنور الذي يتحدّث عنه لا ينحصر في المعنى الماديّ للكلمة، بل يُضيء نفوسَ المحدّقين به وعقولهم. إنّه يبدّد ظلام الشرّ ويحثّ الذين يتقبّلونه على أن يشعّوا بنورهم الخاص، ويقتفوا الفضيلة.

٢٠ – «ليضئ نوركم قدّام الناس». لقد أحسن المسيح بقوله «قدّام الناس». فليكن نوركم ساطعًا بحيث لا ينيركم أنتم فقط، بل يشعّ أيضاً أمام الناس الذين هم بحاجة إلى الاستنارة به. فكما أنّ النور الماديّ يبدّد الظلام ويتيح للذين يسيرون على الطرقات الماديّة المضيّ باستقامة، كذلك أيضاً النور العقليّ الصادر عن المسلك السليم يُنير الذين أعمى الضلالُ بصر نفسهم، فتاهُوا عن رؤية الفضيلة، ويزيل التئام أجفانهم منقّيًا عيون أذهانهم ومعيدًا إيّاها الى الطريق المستقيم، فتسلك من الآن فصاعدًا سبيل الفضيلة.

---

(٨) متّى ٥: ١٦.

٢١ - «ليَروا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات». ليكن انتظامُ مسلككم وفضيلتكم واستقامة أعمالكم الصالحة أداةَ تحريض، للذين يرونكم، على تمجيد سيّد الكل. أتوسّل إليكم بالتالي أن يجتهد كل واحد منكم في العيش بحسب تلك الاستقامة، فتحملوا الذين يشاهدونكم على مباركة السيّد.

٢٢ - لذا كتب الرسول الطوباويّ، معلّم المسلك السليم والمقتدي بالمسيح، ذاك الذي وهو يطوف العالم، عمل كل شيء من أجل خلاص البشر: «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة، فالقديم قد اضمحلّ وكل شيء قد تجدّد». وكأنّي به يحرّضنا على هذا النحو: «لقد خلعت الثوب القديم ولبست الجديد الذي يتحدّى بنوره شعاع الشمس. فاحرص أن تحافظ دومًا وبمثل هذا التألّق على جمال هذا الثوب. وطالما أنَّ الشيطان الفاسد، عدوّ خلاصنا، يرى ثوبنا الروحيّ يتوهّج متألّقًا، فهو لا يجسر على الاقتراب، إذ يخاف من تألّقه، لأنّ البريق الصادر عنه يُعمي بصره».

٢٣ - لذا أسألكم منذ البداية أن تباشروا معركة سخيّة. فتبرهنوا عن بريق ساطع، وتجعلوا بكل الوسائل جمال ثوبكم أكثر تألّقًا ولمعانًا. لا يخرجنّ من فمكم ولا كلمة نافلة أو باطلة. بل فلنحرص أوّلاً [لنعلم] هل بوسعها أن تُجدي نفعًا أو تأتي بالبنيان لمن يسمعها. ومع ذلك فلا نتلفّظ بها إلّا باحتراس شديد، كما لو كان ثمّةَ أحدٌ يخطّ ما نُملي عليه هنا. لنتذكّر قول السيّد: «إنّي أقول

لكم إنّ كل كلمة بطّالة ينطق بها الناس سيؤدّون عنها حسابًا في يوم الدينونة »[٩] .

٢٤ – لنتحاشَ ، بالتالي ، عن الأحاديث الأرضية النافلة البطّالة ، لأنّنا اخترنا من الآن فصاعدًا حياةً جديدة مختلفة . لذا ، ينبغي أن يتطابق تصرّفنا وهذه الحياة ، لكي لا نصير غير جديرين بها . أوَما رأيتم كيف أنّ الذين يسعون ، من جهة المناصب الأرضية ، الى الحصول على مقعد في ما يسمّونه بالمحفل (مجمع الشيوخ) ، تحظّر عليهم القوانينُ الإنسانية أن يأتوا بهذا أو ذاك العمل ممّا هو مباح به كليًّا للآخرين؟ لذا ، فنحن جميعنا ، من نال منّا لتوّه التنشئة ومن استحقّ سابقًا هذه النعمة ، يجدر بنا ، وقد انتمينا نهائيًا إلى هذا المحفل الروحيّ ، ألّانجيز لأنفسنا ما أجازه الآخرون لأنفسهم ، بل أن نُبدي نقاوة في القلب وتيقّظاً في كلامنا ونهذّب كل عضو من أعضائنا ، حتّى لا يُقدم على ما من شأنه أن يمنع عنّا كل منفعة روحيّة .

٢٥ – ماذا أقصد بهذا القول؟ ألا انصرفت ألسنتنا الى التسبيح والتمجيد وقراءة الكتب الإلهيّة والأحاديث الروحية : «إذا تكلّمتم ، فليكن كلامًا حسنًا ، يصلح للبنيان ويؤتي سامعيه نعمة . لا تُحزنوا روح الله الذي ختمتم به »[١٠] . أرأيتم ذلك؟ إنّ من يتصرّف بخلاف هذا الأمر يحزن الروح القدس . لذا ، أتوسّل إليكم أن نجتهد في عدم القيام بما من شأنه أن يحزن الروح القدس . إذا تعيّن علينا أن نغادر بيتنا ، فلا نخالط الاجتماعات المضرّة واللقاءات السفيهة الممتلئة من

(٩) متّى ١٢ : ٣٦.
(١٠) أفسس ٤ : ٢٩.

الترّهات، ولا نؤثر على كنيسة الله وبيوت الصلاة واجتماعات الأحاديث الروحية شيئًا آخر.

٢٦ - وليكن كل عمل من أعمالنا ممهورًا بالتواضع: «لبسة الرجل وضحكة الأسنان ومشية الإنسان تخبر بما هو عليه»(١١). إنّ المظاهر الجسدية تكشف عن جمال نفسنا، والمظهر الخارجيّ هو صورة دقيقة لاستعداد النفس. عندما نتجوّل في الساحة العامّة، لتكن مشيتنا متّصفة بالرزانة والاتّزان بحيث تستلفت نظرَ الذين نصادفهم. فلا تختلّ مشيتنا ولا ترفرف العين أبدًا، بل فلينطق فمُنا بالكلام بهدوء وعذوبة. وبكلمة واحدة، فليعبّر كلّ ما هو خارجيّ فينا عن جمال النفس الداخليّ. وبما أنّ الحياة التي أخذناها على عاتقنا هي جديدة وغريبة، فليتغيّر مسلكنا، فيمسي غريبًا. هذا ما يبيّنه الطوباويّ بولس، إذ يقول: «إن كان أحد في المسيح، فهو خليقة جديدة»(١٢).

٢٧ - ولكي تدرك أنّ العطايا التي وُهبت لنا هي جديدة وخارقة، ألا أنظر كيف أنّنا نحن الذين كانوا في الأمس أحقرَ من الوحل، يزحفون على الأرض، أمسينا فجأة ألمع من الذهب واستبدلنا الأرض بالسماء. لذا، فكل العطايا التي وُهبت لنا إنّما هي روحية: فثوبنا روحيّ وغذاؤنا روحيّ وشرابنا روحيّ. فمن المعقول إذن أن تكون أعمالنا وأفعالنا، من الآن فصاعدًا، بأجمعها روحية، لأنّ هذه الأمور، على حدّ قول بولس، هي ثمر الروح: «إنّ ثمر الروح هو المحبّة والفرح والسلام واللطف والأمانة والصبر

---

(١١) إبن سيراخ ١٩: ٢٧. (١٢) ٢ كور ٥: ١٧.

والوداعة وطول الأناة، وأمثال هذه ليس ضدّها ناموس»[١٣]. إنّه محقّ، ولا شكّ، في ما أسلف من القول، لأنّ الذين يمارسون الفضيلة هم فوق الناموس ولا يخضعون له: «إنّ الناموس لم يسنّ للبار»[١٤].

٢٨ - وفي إثر ذلك، يضيف الرسول، وهو يشرح ثمر الروح: «إنّ الذين هم للمسيح يسوع، صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات»[١٥]. وكأنّي به يقول: لقد شلّوه وجعلوه عاجزًا عن صنع الشرّ، بل وحاربوه بشدّة، فسَمَوا على الأهواء والشهوات. ذلك ما يودّ بولس أن يشير إليه بقوله: «لقد صلبوه». فكما أنّ الذي عُلّق على الصليب وسُمّر بالمسامير لا تهاجمه رغائب الجسد بل تتعطّل كلّ الأهواء وكلّ رغبة شريرة، لأنّ العذاب قد حطّمه واخترقه من طرف الى آخر، حتّى إنّ الألم لم يترك فيه موضعًا سالمًا، كذلك عرف أولئك الذين وقفوا ذواتهم للمسيح أن يتّحدوا به اتّحادًا حميمًا ويهزأوا من مستلزمات الجسد، حتى إنّهم صلبوا أنفسهم مع أهوائهم وشهواتهم.

٢٩ - أمّا نحن الذين لبسوا المسيح وانتَموا إليه واستحقّوا أن ينالوا غذاءه وشرابه الروحيّين، فلنرتّب حياتنا كأناس لا يرتبطون مع أمور هذه الحياة بشيء مشترك. فها قد صرنا بالفعل أعضاءً في مدينة أخرى، في أورشليم السماوية. لذا، أتوسّل اليكم أن نُظهر من خلال ممارستنا للفضيلة أعمالاً تليق بهذه المدينة الجديدة، فنحظى بنعمة

---

(١٣) غلا ٥: ٢٢-٢٣. (١٤) ١ تيمو ١: ٩.
(١٥) غلا ٥: ٢٤.

سماوية وافرة، بواسطة الدعوة الى تمجيد السيّد الذي يجده الآخرون فينا. فإنّ سيّدنا، عندما يتمجّد، سيسكب بدوره علينا وفير ما في حوزته من هبات، لأنّه يقبل إرادتنا الحسنة، ويعلم أنّ خيراته لن تلقى منّا سوء طويّة أو نكران جميل.

تذكير بميثاق المعمودية

٣٠ – لقد أطلت الكلام، وأنا أعلم بذلك. فاعذروني لأنّ ما أكِنّ لكم من حنان استثار لكم هذا التعليم الطويل. إنّي لأدرك تمام الإدراك، إذا ما رأيت فيكم هذا الغنى الروحيّ، سخطَ الشيطان الفاسد. الآن أعلم أنّكم بحاجة الى تيقّظ عظيم واحتراس شديد. لذا حرّضتكم على التمسّك بالرصانة الروحية والسهر على كنزكم الروحيّ وحمايته كي لا يجد عدوّ خلاصكم منفذًا اليه.

٣١ – ألا تمسّكوا بالعهود التي قطعتموها مع السيّد، تلك التي لم تكتب بالمداد على الورق بل بالإيمان والاعتراف، فتستمرّ ثابتة غير متزعزعة. اجتهدوا في أن تثبتوا طول حياتكم في هذا التألّق عينه. فإذا ما رضينا بأن نبذل دومًا من عندنا، يمكننا أن نحافظ على اللمعان عينه، لا بل أن نضاعف تألّق نسيج ثوبنا الروحيّ. فإنّ بولس، بعد نعمة المعمودية، كان دومًا يَظهر، مع مرور الزمن، أكثر لمعانًا وتألّقًا بفضل النعمة التي كانت تتفتّح فيه.

٣٢ – لنجتهد أيضاً في السهر كل يوم على ثوبنا المستنير لئلّا يتّسخ أو يتلطّخ. ولنُبْدِ حذرًا شديدًا حتى في الأمور التي تبدو لنا صغيرة، وذلك لكي نقوى على تجنّب الأمور الخطيرة التي هي الخطايا. فإذا

رُحنا نحتقِرُ بعضَ الأمور على أنّها تافهة، نبلغُ شيئًا فشيئًا، ونحن ننتهج هذا السبيل، إلى السقطاتِ الخطيرة. لذا، أطلب منكم أن تبقى ذِكرى التزاماتِكم حاضرة في ذهنكم وأن تتجنّبوا، من دون رجعة، عدوى الشرور التي تخلّيتم عنها، أعني بها المباهج الشيطانية وكل مكايد الشيطان الأخرى. حافظوا على التزاماتكم أمام المسيح حتى تنعموا بالمائدة الروحيّة وتكونوا، وقد تقوّيتم بهذا الغذاء الروحيّ، بمنأى عن فخاخ إبليس.

٣٣ – ألا استمطروا عليكم، بكمال مسلككم، نعمة الروح، لتُحرزوا مناعة في ذواتكم وتُسهموا، بفضل تقدّمكم، في فرح الكنيسة وابتهاجها، بحيث يتمجّد سيّدنا ونصبح نحن أهلاً لملكوت السماوات. بنعمة ابن الله الوحيد ورحمته، ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح الذي له ولأبيه ولروحه القدّوس المجد والقدرة والإجلال، الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور. آمين.

العِظَـةُ الخَامِسَـة

للخطيب نفسه: حضٌّ على تجنُّب التراخي وعيشة البَذْخ والسكر، وتقديم الاتزان والاعتدال على كل شيء؛ وتوجُّه الى الموعوظين.

لا نتذرّع بالأعياد الفصحيّة كي نتمادى في التراخي

١ – أيّها الأحبّاء، إذا كان الصومُ قد انتهى، فينبغي للتقوى أن تستمرّ، وإذا انقضى زمن الأربعين المقدّس، فلا ننسَ ذكراه. أتوسّل إليكم ألّا يتكدّر أحد منكم من جرّاء هذا التحريض. فأنا لا أقول هذا لأفرض عليكم صومًا جديدًا، بل أودّ بخلاف ذلك أن تنعموا بالراحة وتمارسوا بدقّة، في الوقت نفسه، الصوم الحقيقي. لأنّه من الممكن أن نحيا الصوم من غير أن نصوم. وكيف يكون ذلك؟ هاءنذا أخبركم أنّ ذلك يكون حين نتناول الطعام ونمتنع عن الخطايا. هٰذا هو في الحقيقة الصوم الخلاصيّ، وهذا ما يهدف إليه الإمساك عن الأكل، ليُسهّل علينا مَسيرة السِباق نحو الفضيلة. ألا ثقوا بي، فإنّه ينبغي لنا أن نتصرّف على هذا النحو، فنروم في الوقت نفسه أن نعتني بالجسد بطريقة لائقة ونصون نفسنا نقيّة من الخطايا.

٢ – وهذا الضرب من الصوم سيكون أيسرَ لنا. فقد تناهى إليّ في صدد الصوم الآخر الذي يقوم على الإمساك عن الطعام أنّ أناسًا يتذرّعون بضعفهم الجسدي، فيقولون إنّهم يعانون قساوة حرمانهم من الطعام، ويتذمّرون من أمور أخرى مدّعين أنّهم سوف يمرضون

إن لم يستحمّوا أو يشربوا الماء. أمّا الصوم الذي أعظ به، فلا يسعنا أن نعترض عليه بشيءٍ من هذا القبيل، لأنّه من الممكن أن نستفيد من هذا كلّه، فنقدّم للجسد حقّه من العناية ونتيقّظ لنفسنا التيقّظ اللائق. فأنا لا أطلب منكم في هذه اللحظة أن تتقيّدوا بهذا الإمساك. إمتنع فقط عن الخطيئة، وتحلَّ بأمانة ثابتة في ما امتنعتَ عنه، وآنئذ يمكنك أن تمارس الصوم الحقيقيّ مدى الحياة. والواقع أنّ التصرّف المعتدل في الخيرات الجسدية التي أحصيتُ لأَمرٌ غير محظور، في حين أنّ الخطيئة تبقى ذاك الأمر الذي ينهى عنه في كلّ الأحوال. والحال أنّها لا تنتج إلّا من التراخي والفجور والإفراط في الأكل. وبما أنّكم تُدركون تمامًا ذلك كلَّه، فلا نختلقْ حججًا زائفة تودي بنا إلى التراخي.

٣ – أردّد الآن ما قلته غالبًا: فكما أنّ التصرّف المعتدلَ في الطعام هو مفيدٌ لصحّة الجسد ولاتّزان النفس، كذلك الإفراط يُفسد الإنسان في ناحيتين: فالاستزادة من المأكل والمشرب تحطّم قوّة الجسد وتدمّر صحّة النفس. فلنتجنّب الإفراط، ولا سيّما عندما يتعلّق الأمر بخلاصنا، ولا نقبع في الإهمال، بل فلنقتلعه بتأنٍّ، مدركين أنّه أصل كل الشرور. فمن المغالاة والإدمان تصدر كلّ أنواع الخطيئة صدورَها من النبع. فمثَل الإدمان والمغالاة بالنسبة إلى الخطايا التي نوشك أن نقترفها كمثَل المادّة المحترقة بالنسبة إلى النار. فالخشب الذي به نُغذّي الجمر المحترق يزيده اشتعالاً ويُصعد لهيبَه الى السماء: هنا يشتدّ سعيرُ نار الخطايا عندما نستسلم إلى المغالاة والإدمان.

تجنّبوا ثمل الخمرة وسكر الأهواء

٤ – إنّي لعالِم بأنّكم عقلاء، لا تسعون بعد تحريضنا إلى تجاوز حدود الحاجة. بيد أنّني أحرّضكم، لسبب وجيه، على الهرب ليس فقط من السكر (الجسدي)، بل من ذاك الذي يسود علينا من غير أن نشرب الخمرة، لأنّه عظيم الضرر. لا تنذهلوا من كلامي لأنّه من الممكن أن نَسكر من دون خمرة: «آه، لقد سكروا وليس من الخمر»[1]. فمَا هو هذا السكر غير الناجم عن الخمرة؟ إنّه لمتعدّد الأوجه ومتنوّعها: فالغضب يُسكر، والمجد الباطل أيضاً، وكذلك الهذر. وكلّ هوى مضرّ يتولّد في نفسنا يلفّ عقلَنا بالظلام باعثًا فينا نوعًا من السكر والانتفاخ. فما السكر سوى فقدانِ الوعي وانحرافِ العقل في اجتهاداته وتيهانه خارج سبله الطبيعية.

٥ – قل لي: أوَيكون الذين يغضبون ويسكرون من شدّة الحنَق في وضع أقلَّ خطورةً من الذين يسكرون من الخمرة؟ إنّهم لَيبرهنون عن عُنف في المشاعر، فيثورون على الجميع من غير أن يتثبّتوا في كلامهم ولا أن يميّزوا الأشخاص. فكما أنّ المجانين والمسعورين يتورّطون، من غير أن يدروا بذلك، في المصيبة، كذلك يفعل الغاضبون والذين يستفزّهم الحنق. لذا يقول الحكيم مريدًا أن يُبيّن ما ينطوي عليه السكر من أذى: «وقر غضب الإنسان هو سقطته»[2]. أفترون كيف بيّن لنا ببضع كلمات جسامةَ هذا الهوى المضرّ؟

٦ – إنّ المجدَ الباطل والهذر، إلى جانب كونهما وجهين آخرين للسكر، هما أشدّ فظاعة منه. فالذي تستحوذ عليه هذه الأهواء،

(١) أشعيا ٢٩ : ٩.
(٢) إبن سيراخ ١ :٢٨.

يفقد، على حدٍّ ما يقال، مقاييس الإدراك، وهو ليس بأقلَّ حماقةً من المعتوهين، لأنّ الأهواء، وهو غافلٌ عن ذلك، تنهشه كلّ يوم، إلى أن يغرق، وقد تمرّغ في حمأة الرذيلة، في بلايا مستعصية. أتوسّل إليكم إذن أن نهرب من السكر الحاصل من الخمرة والظلمة اللتين تبعثهما في عقولنا الأهواء. لنسمع ما يقوله لنا معلّم المسكونة: «لا تسكروا من الخمر التي فيها الدعارة»[٣].

٧ – أرأيت كيف يبيّن جليًّا، بهذا الكلام، أنّه من الممكن أن نسكر بغير هذه الطريقة. فلو لم يكن هنالك نوع آخر من السكر، فلماذا أضاف: «من الخمر»، بعد أن قال: «لا تسكروا»؟ ألا لاحظوا سموّ الحكمة وصحّة التعليم من خلال ما أضافه، إذ إنّه بعد أن قال: «لا تسكروا من الخمر»، أضاف: «التي فيها الدعارة»، مبيّنًا لنا أنّ الإفراط في الخمر هو لنا سبب كلّ الشرور. وتعني «التي فيها الدعارة» أنّ غنى الفضيلة قد انتُزع منّا.

٨ – ولكي تقف على هذا الأمر، سوف أحاول أن أبيّن لك بطريقة جليّة، واستنادًا إلى ما استُعمل من كلمات، غموض تعبيره. لقد اعتدنا أن نقول في الذين نراهم يبذّرون عشوائيًّا الخيرات الأبويّة لنزوةٍ فيهم، إنّه لفتى ضالّ. هؤلاء لا يعرفون وقتًا للتبذير ولا مقياسًا للإسراف، وإنّما ينجحون، بقليل من الوقت، في تبديد إرثهم بأسره، فيصيرون الى بؤس مدقع. تلك هي حالُ الذين يتمكّن منهم سكرُ الخمر. إنّهم لا يدرون كيف يستغلّون غنى عقلهم، بل كالفتيان الضالّين يُغرقهم السكر، فيتصرّفون ويتكلّمون

(٣) أفسس ٥: ١٨.

دونما تحفّظ ، مطلقين للسانهم العنان ومُهذرين بما لا يليق وما يضرّ في كل شيء. هذا أيضاً أسوأ من حال الفتيان الضالّين الذين لا يبذّرون سوى ممتلكاتهم الخاصة ، فينتابهم عوزٌ شديد الى الفضيلة. وغالبًا ما يحدث أنّهم يُسِرّون بمكنونات فكرهم ، من غير أن يفطنوا لذلك. وبعد أن يكونوا قد هدروا غنى فكرهم كلِّه ، يرون ذواتِهم فجأةً وقد أصابها الحرمان والافتقار الى التقوى والفضيلة.

السكر مسٌّ اختياري

٩ – فالإنسان السكّير لا يحسن اختيار كلامه ، بل كالبيت المشرع إلى الهواء والمعرّض لما ينتابه من نوايا معادية ، يصطدم فكره ، وأبوابه قد شرّعت على مصراعيها ، بهجمات الأهواء المميتة. فالسكّير خائن لأفكاره الخاصّة. إنّه ذاك البائس الذي نهزأ به ، ذاك المريض الذي نسخر منه. إنّه ممسوس باختياره ، روح مظلم ، عقل غائب عن ذاته وجذوة تُلهب الأهواء الجسدية. وغالبًا ما نُشفق على من يعذّبه الشيطان ، أمّا السكّير، فيُغضبنا ويسخطنا. ولماذا؟ لأنّنا في الحال الأولى أمام عملٍ للشيطان ، أمّا في هذه الحال ، فثمّة دليل الى خمولٍ كبير ووهَن في العزيمة : في الحال الأولى ، يحبك الشيطان هذا الشرّ؛ أمّا في هذه الحال ، فأفكار الإنسان الخاصّة هي التي تحبكه.

١٠ – ولكي تعلم أنّ الأمر هو على هذا المنوال ، تأمّل هذا : إنّ السكّير عرضة للأشياء عينها ، لا بل لأسوأ ممّا يتعرّض له المَمسوس. فالمَمسوس يزبد من فمه ويقع على الأرض ، وغالبًا ما يبقى ممدّدًا عليها دونما حراك ، حتّى إنّ حدقتَي عينيه تنقلبان فلا يعود يتعرّف إلى من يحيط به. وقد يحصل هذا الأمر عينه مع الإنسان

السكّير: فعندما يقضي إفراطه في ما يتناول من خمرة على جليّ حكمه، يزبد من فمه، على غرار الأوّل، ويرقد جثّةً نتحوّل نحن عنها نهائيًّا. وغالبًا ما يتقيّأ من فمه سيلاً من الأقذار، فيضحي عالةً على زوجته ومهزلة لأولاده، مرذولاً من خدّامِه وممقوتًا من أصدقائه. إنّه، بكلمة واحدة، موضوع عار وتهكّم لكلّ الذين يرونه.

١١ - أرأيت كيف أنّ السكارى هم أحقر بكثير من الممسوسين؟ أتريد أن تعلم بعد هذا كلّه ما هو رأس كل الشرور؟ فإنّني، بعد أن قلت ما فيه الكفاية، لمّا أبلغْ بعد طفح الكلام. فالسكّير يُطرَد أيضاً من ملكوت السماوات. لنسمع ما يقوله الطوباويّ بولس: «لا تغترّوا، فإنّه لا العاهرون ولا عبدة الأوثان ولا الزُناة ولا السفلة ولا السكّيرون يرثون ملكوت الله»[٤]. وقد يقول قائل: ماذا إذن؟ أفيُطرد عابدُ الأوثان والزاني والسكّير، ثلاثتُهم، بالطريقة عينها من ملكوت السماوات؟ لا تنتظر منّي الجواب يا عزيزي، إذ إنّني لم أقرأ سوى الشريعة الإلٰهيّة بتعابيرها الخاصّة. فلا تُشغل بالك [لتعرف] هل السكّير يخضع مثل أولئك للعقاب نفسه، بل اعتبره، على غرارهم، محرومًا من الملكوت. وإذا ما حُرمنا من الملكوت، فأيّ تعزية تبقى لنا؟

١٢ - فإذا كنتُ الآن أتحدّث بهذا الأمر، فليس لإلقاء التهمة على الآخرين. ألا وقاني الله من ذلك. إنّي لمقتنع بأنّكم أبرياء في مِحَنكم، بنعمة الله، وخير دليل على ذلك هو شوقُكم الى ارتياد هذه الاجتماعات، واندفاعُكم في الحضور لسماع هذه التعاليم

---

(٤) ١ كور ٦: ٩-١٠

الروحيّة. فإنّه يستحيل على النفس أن تتشوّق الى كلام الله ما لم تكنْ في حال من الزُهد والتيقّظ. بيد أنّني، إذ أتكلّم على هٰذا النحو، أريد من خلالكم أن أعلّم الآخرين، وأجعلكم أنتم أكثرَ ثباتًا، كي لا تقعوا أبدًا ضحيّة هذه المحنة.

١٣ – فإنّ هؤلاء القوم هم أحمق من البهائم عينها. كيف ذلك؟ هاءنذا أخبركم: إنّ الحيوان، إذا ما أصابه العطش، يقيس رغبته على مقدار حاجته، بحيث لا يتخطّى مطلقًا هٰذه الحاجة. إلّا أنّ هنالك أشخاصاً، لا بل حيوانات عاقلة، يسعَون لا إلى إطفاء عطشهم وحسب، بل إلى الغرَق في الخمرة، فيزيدون من حِدّة غرقهم. فكما أنّ المركب المثقل بالأحمال يغرق بسرعة، كذلك الإنسان الذي تخطّى حدود الحاجة وأثقل معدته بعبء ثقيل، يُغرق ذكاءه ويحطّ من شرف نفسه.

١٤ – لذا ينبغي، أيّها الأحبّاء، أن تعملوا على إصلاح قريبكم وانتشاله من هذه الهوّة، حتى تضمنوا لكم أجرًا كبيرًا لا عن أعمالكم الصالحة فحسب، بل عن خلاص الآخرين أيضاً. يقول بولس في هذا الشأن: «لا يطلب أحد ما هو لنفسه، بل ما هو لغيره»[٥]. وأيضاً: «ليَبنِ أحدكم الآخر»[٦]. فلا تعتبر نفسك، بالتالي، أنّك في صحّة جيّدة، وأنّك تفلّتَّ من هٰذا الشرّ، بل احترس أيضاً واعتنِ بأن تُعتِق مَن هو في الجسد عينه الذي أنت فيه، فيتجنّب هجمات الشرّ: «لئلّا يكون شقاق في الجسد، بل يكون

(٥) ١ كور ١٠: ٢٤.
(٦) ١ تسا ٥: ١١.

للأعضاء اهتمام واحد بعضُها ببعض : فإن تألّم عضوٌ تألّم معه سائرُ الأعضاء ، وإن أُكرم عضوٌ فرِح معه سائر الأعضاء» (٧) .

أخطار التراخي يبرهنها مسلك اليهود

١٥ - لَـمْ تحتاجوا في زمن الصوم المقدّس إلى كل هذا النصح والتحريض ، كما تحتاجون إليه الآن. فإنّ ممارسة الصوم قد وضعتكم ، على الرغم منكم ، في حالٍ من الاعتدال. بيد أنّي ، خلافًا لذلك ، أخاف وأخشى الخلاعة والتراخي اللذين ينجمان عنه . فالطبيعة البشرية لا تُجرَّد من سلاحها إلّا في التهاون. لذا وضع السيّد ، منذ البدء وبوافر لطفه ، حدًّا للجنس البشري ، فحكم على الإنسان بالعذاب والبؤس ، ليُظهر كبيرَ اهتمامه بخلاصنا.

١٦ - فنحن إذن بحاجة دومًا الى خطامٍ كي نسير باستقامة. فاليهود جلبوا على أنفسهم الغضب من فوق ، إذ إنّهم ، بعد أن أعتقوا من عبوديّة مصر القاسية ، نعموا براحة عظيمة وبهدوء كامل. وقد كان يتعيّن عليهم ، مقابل ذلك ، أن يرسلوا آيات الشكر ، ويرفعوا الى السيّد تسبيحًا حارًّا ، معترفين بجميل الذي يدينون له بهذه الخيرات الجمّة. لكنّهم تصرّفوا بخلاف ذلك. فقبضت الراحةُ التي نعموا بها على عنقهم. لذا يتّهمهم الكتاب المقدّس بهذه الكلمات : «أكل يعقوب فسمن ، واكتسى شحمًا وغلظ فرفض» (٨) .

١٧ - وبعد هذه المعجزات الكثيرة والعجائب الخارقة ، وبعد

---

(٧) ١ كور ١٢ : ٢٥-٢٦.
(٨) تث ٣٢ : ١٥.

عبور البحر ونكسة المصريين وغذاء المنّ الجديد والغريب ، وفي حين كان يتردّد على مسامع (اليهود) ذكرى هذه الخيرات وهم في أوج الراحة التي وهبت لهم ، تناسَوا هذا كلّه ، وصنعوا عجلاً من ذهب وعبدوه قائلين : «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر»[(٩)] . يا لَنكران الجميل ويا لَلعمى المرعب ! تلك كانت دومًا حال جهلهم . فقد كانوا يتهافتون على المهالك حينما يتسنّى لهم أن يستسلموا الى الراحة ، ويتناسَون المحسن اليهم . ولكن ما إن يتأزّم وضعُهم حتّى يُذعنوا راضخين . لذا بيّن السعيد داود هذا الاستعداد قائلاً : «إذ كان يقتلهم كانوا يلتمسونه»[(١٠)] .

١٨ – تلك هي عادات الخدّام الكنودين واليهود الكفيفين . أمّا بالنسبة إلينا ، فأتوسّل إليكم أن نستعيد دومًا في فكرِنا ذكرى عطايا الله وخيراته العديدة والعظيمة . لنظهر شاكرين للجميل ولنتعلّم أبدًا أن نتعرّف الى مصدر الخيراتِ التي نحصل عليها ، مُبدين مسلكًا يليق بهذه الأعمال الصالحة . لنعمل في كل أيّامنا من أجل صحّة نفوسنا . فأنتم الذين استحقّوا مجدّدًا التنشئةَ الإلٰهيّة في الأسرار ، ونزعوا حمل خطاياهم ، ولبسوا ثوب النور ، ماذا أقول ، أثوب النور؟ لا بل أنتم الذين لبسوا المسيحَ نفسَه واستقبلوا في ذواتهم معلّم الكل ، ألا تحلّوا بمسلك يليق بالذي يسكن فيكم ، حتى تستنزلوا عليكم نعمةً وفيرة وتحتذُوا ، وأنتم على كثيرٍ من الاحتراس ، مثالَ الذي كان في بادىء الأمر مضطهدًا وأضحى في آخر الأمر رسولاً .

---

(٩) خر ٣٢ : ٤ .

(١٠) مز ٧٧ : ٣٤ .

مثال بولس وأمثولة سمعان الساحر

١٩ – إنّ بولس ، بعد معموديّته واستنارته بنور الحقيقة ، قد غدا ذا شأن كبير. بيد أنّ شأنه تعاظم في ما بعد ، وإذ بذل كلّ ما في وسعه من حماسةٍ وحميّة وإقدام سخيّ وشوق مضرم واحتقار للأمور الحاضرة ، أغرقته نعمةُ الله إغراقًا. وما إن استبان طريق الحقيقة ، وهو الذي أظهر في السابق هيَجانًا لا يُضبط ، جائلاً في كل ناحية ومحاربًا للتقوى بوسائل شتّى ، حتّى أذهل اليهود الكنودين ، فأُدلي به من النافذة في سلَّة ، كيما يتمكّن من الهرب من شراسة اليهود الحانقين. هلّا رأيتم هذا التبدّل الفجائيّ؟ هلّا رأيتم كيف أنّ نعمة الروح قد قلبته وبدّلت في استعداداته ، وكيف أنّها ولجت كالنار الساقطة على الشوك ، فأحرقت أشواك الخطايا وجعلت بولس أقوى من الفولاذ؟

٢٠ – أتوسّل اليكم أن تقتدوا به أنتم أيضاً لكي تُدعَوا مولودين جددًا ، ليس فقط ليومين أو ثلاثة ، وربّمَا لعشرة أو عشرين يومًا ، إذ إنّه يمكنكم أن تستحقّوا هذا الاسم بعد عشر سنوات أو عشرين أو ثلاثين سنة ، لا بل طول حياتكم كلّها. فإذا ما اجتهدنا في مُمَارسة الأعمال الصالحة بجعلنا النور الذي فينا ، أعني به نعمة الروح ، أكثرَ ضياءً ومقاومةً للخمود ، ننعم حينئذ بهذا الاسم على الدوام. فكما أنّ من يملك نفسًا زاهدة ومتيقّظة ويبرهن عن مسلك لائق يمكنه أن يظلّ أبدًا مولودًا جديدًا ، كذلك أيضاً ، إذا ما أفلتنا لنفسنا العنان ، يمكننا أن نمسي ، في يوم واحد ، غير جديرين بهذا اللقب.

٢١ – هكذا استمطر الطوباويّ بولس عليه، بالفضيلة التي أظهرها إثر ذلك، فيضاً من العون العلوي، وظلّ طويلاً على هذا البهاء، جاعلاً نور الفضيلة الذي فيه أكثر تألُّقًا. أمّا سمعان الساحر، فقد تاب في بادئ الأمر وأقبل لنيل العطيّة الممنوحة له في المعمودية، وأفاد من نعمة المعلّم وسخائه. بيد أنّه لم يُبدِ استعدادات لائقة، بل برهن عن لامبالاة عظيمة، فحرم لتوّه من تلك العطيّة السنيّة، حتّى إنّه تلقّى من أوّل الرسل النصح بأن يعالج جسامةَ جريمته بالتوبة، إذ قال له: «تب إذن من شرّك هٰذا، عسى أن يُغفَر لك وَهمُ قلبك»[11].

٢٢ – فلا يعرّض أحد نفسه من المجتمعين ههنا، لهذا النوع من التوبيخ. يا ليتكم جميعًا تتقدَّمون، على غرار بولس، في الفضيلة إلى أن تستحقّوا سخاء فائضاً من قبل السيّد. فما أهّلنا نحن لاستحقاقه، أيّها الأحبّاء، ليس بالأمر الضئيل. إنّه لَيسمو فوق كلّ تفكير بشريّ، وما وهبناه من عطايا عظيمة لَيفوق تصوّرنا. ألا تأمّلِ الحِمل الذي أسند إليك والكرامةَ التي نلتها من ملك المسكونة. فبينما كنتَ بالأمس عبدًا وأسيرًا وعاصيًا، ها إنّك الآن تُرفع الى درجة البنوّة. فلا تراخٍ إذن بعد اليوم. لاتنزع عنك هٰذه الكرامة ولا تحرم نفسَك من هذا الغنى الروحيّ. وإذا تمنّعت عن ذلك، فلا أحد بعد اليوم يسعه أن يخطف منك العطايا التي جعلها الله لك.

٢٣ – نعم، إنّ ذلك لمستحيل في الأمور البشرية. فنحن عندما نحظى من الأمير الأرضيّ بكرامة ما، لا يعود انتزاع هذه الكرامة أمرًا

---

(١١) أع ٨: ٢٢.

يتعلّق بقرارنا، وذلك لأنّ واهبها هو أيضاً سيّد استردادها، وهو، إذا شاء، يجرّد الإنسان منها ويعيده فجأة الى مرتبته العادية بإعتاقه من مهمّته. أمّا في ظلّ ملكنا، فالأمر مُغاير تمامًا. فالكرامة التي منحنا إيّاها دفعة واحدة، حبًّا منه لنا، وأقصد بها البنوّة والقداسة ونعمة الروح القدس، لا أحد يسعه أن يخطفَها منّا إلّا في حال الاستهتار الصادر عنّا. سبق وأسبغها علينا، ليسخى في عطائه ويضاعف هباتِه النابعة منه بأريحيّة، وأيّ أريحيّة!

التوبة الصادقة تعيد الى المعمَّدين براءتهم السابقة

٢٤ - لنقرّ شاكرين، وقد أدركنا أنّ كل شيء، بعد نعمة الله، عائد إلينا وإلى اجتهادنا، للعطايا التي سبقنا فحصلنا عليها، وذلك كي نستحقّ من العطايا أعظمها. لذا أتوسّل إليكم، أنتم الذين استحقّوا الموهبة الإلهيّة، أن تحترسوا فتصونوا ثوبكم الروحيّ منزّهًا عن العيب نقيًّا. أمّا نحن الذين حصلوا على هذه الموهبة في ما مضى، فلنُظهر تبدّلاً في حياتنا ملموسًا. فإذا ما رغبنا في ذلك وأسهمنا فيه بمُثابرتنا، يمكننا أن نعود عودًا حميدًا الى الجمال والتألّق القديمين.

٢٥ - أمّا في ما يختصّ بالجمال الجسدي، فما إن يُمسي الجسم مشوّهًا ويفقد جماله الأوّل، لبلوغٍ في السنّ أو لمرض ما أو بسبب حال ماديّة معيّنة، حتى يستحيل عليه أن يستردّ ألَقَه. والذي حصل هنا يتّصل بسُنّة الطبيعة، لذا يتعذّر استعادة ألَق الجمال الأوّل. أمّا بالنسبة إلى النفس، فالأمر، إذا أردناه، ممكنٌ بفضل جودة الله الفائقة الوصف. فالنفس، إذا ما اتّسخت وهوت قبيحة مشينة،

بسبب خطاياها الكثيرة، تستطيع أن تعود بسرعة الى جمالها الأوّل، إن نحن أظهرنا توبة رصينةً وصادقةً.

٢٦ – وأنا إنّما أقول هٰذا لنفسي ولكلّ الذين استحقّوا المعمودية قديمًا. ألا ثقوا بي، أنتم يا جنود المسيح الجدد، واجتهدوا في أن تصونوا نقاوة ثوبكم بشتّى الوسائل. فمن المستحسن إذن أن تعتنوا في الوقت الحاضر بتألّقه، وتنشغلوا بشأنه حتى يثبت دومًا في النقاوة، فلا تنال منه نجاسة ما، وذلك بدلاً من أن تستسلموا لأهوائكم وتنتحبوا قارعين صدوركم بُغية اغتسالِكم من النجاسة التي حلّت بكم. أتوسّل إليكم ألّا يحدث لكم ما حدَث لنا. بل فَليكن إهمال سابقيكم حافزًا لكم على الثبات.

٢٧ – وكجنود روحيّين، متيقّظين بواسل، أعدّوا أسلحتكم الروحيّة كل يوم حتى إذا رأى الخصم بريق عدّتكم، يبتعدُ عنكم ولا يعود يُفكّر بالاقتراب منكم لدى رؤيته لمعان سلاحكم. لا بل إنّه، أكثر من ذلك، يختبئ مرتدًّا عنكم حينما يَراكم متدرّعين من كل جانب، وذلك لعلمه بأنّه لن يربح شيئًا، حتى ولو عاود الكرّة ألف مرّة. إنّه بالحقيقة لوقح وسافل. لا بل هو أكثر فظاظة من أيّ حيوان آخر، وإن هو رأى عدّتكم الروحية والقوّة التي وهبكم إيّاها الروح يعي جيّدًا حقيقة ضعفه ويرتدّ، والخجل يعلو محيّاه، دائنًا نفسه بنفسه، لكونه يعلم بأنّه يسعى الى تحقيق ما لا يستحقّ.

٢٨ – لِنمارس إذن جميعُنا الزُهد الروحيّ. فإنّي أتوسّل إليكم كلّكم، أوّلاً إلينا، نحن الذين استحقّوا في ما مضى هذه العطيّة، بحيث استرددنا جمالَنا الأوّل وتطهّرنا من النجاسة التي حلّت بنا،

وثانيًا إليكم أنتم الذين تنعمّوا من وقت قريب بالسخاء الملكيّ، ألا أظهروا حسن الثبات وجليل التيقّظ كي تبقَوا دومًا في النقاوة بعيدين عن كل عيب أو غضن تسبّبهما دسائس الشيطان. لنتدرّع من كل جانب كأنّه هو حاضر بالقرب منّا، ولنزمِ جانبًا أسهمَ خبثه، فنُقاومه باجتهاد أكثر واهتمام مضطرم بخلاصنا حتى نتجنّب فخاخه ونستمطر علينا، وحالُنا سالمة، النجدة العلويّة. بنعمة سيّدنا يسوع المسيح ورحمته، الذي له ولأبيه ولروحه القدّوس المجدُ والقدرة والإجلال، الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور. آمين.

العِظَـةُ السَّـادِسَـة

للخطيب نفسه، تأنيب للذين تخلّفوا عن الاجتماع في سبيل سباق الخيل والمسرح؛ ووسائل الاهتمام بالإخوة المتوانين؛ وتوجّه إلى الموعوظين.

هجر بعض المسيحيين الكنيسة سعيًا وراء الحفلات الدنيويّة

١ – وها من جديد تظهر سباقات الخيل ومسرحيّات الشيطان، فيتقلّص بالتالي عدد جماعتنا. لقد حرّضتكم سابقًا، إذ كنت أخشى الإهمال الناجم عن التراخي واللامبالاة، وتوسّلت إلى محبتكم ألاّ تهدروا الغنى الذي اقتنيتموه بالصوم، أو تُبلَوْا بالمسرحيات الشيطانيّة، فتسري عدواها إليكم. بيد أنّ هذا التحريض قد ذهب، على ما أرى، أدراج الرياح. فإنّ الذين استمعوا إلى تعليمنا قد انجرفوا اليوم، وبتخلّيهم عن الإصغاء الروحيّ، سقطوا في الهوّة، سالخين عن فكرهم ذكرى الصوم المقدّس ويوم عيد الفصح المخلّص والشركة الرهيبة غير الموصوفة في الأسرار الإلهيّة ومتابعة تعاليمنا أيضاً.

٢ – فقل لي: بأيّ حماسة يسعني أن أواصل بعد الآن هذا التعليم اليوميّ، وأنا أراك لا تنتفع بشيء من كلامنا، وأرى أنّه كلّما طال تعليمنا يزداد بالمقابل إهمالك، ممّا يضاعف من حزننا ويجلب على المذنبين دينونة أشدَّ خطورة، وهذا لا يزيد من حزننا وحسب، بل من يأسنا أيضاً. فإنّ الفلاّح، إذا ما رأى أنَّ أرضه، بعد كثيرٍ من الكدّ والجهد، لم تنتج ما يوازي أتعابه، بل ظلّت صخرًا عقيمًا،

ليتردّد في مواصلة اعتنائه بها، إدراكًا منه أنّه يشقى من دون جدوى. وكذلك الواعظ، فإذا ما رأى، بعد كثير من الاهتمام والوعظ المتواصل، أنّ المُصغين إليه يقبعون في الإهمال عينه، لَيعجز عن مواصلة تعليمه الروحيّ بالحماسة نفسها، ولو أنّ جزاء أتعابه لا يمسّه أيّ نقصان بفعل لامبالاة أولئك الذين يستمعون إليه.

٣ – إلاّ أنّ ما يقال في الزراعة، لا يصحّ قوله في التعليم الروحيّ. فالفلاّح، عندما تخونه الأرض، يقفل راجعًا إلى بيته صفر اليدين، من دون أن يجد أيّة تعزية لقاء أتعابه. أمّا بالنسبة إلى الواعظ، فالأمر على خلاف ذلك: فحتّى لو استمرّ المستمعون إليه في الإهمال عينه، وحتّى لو لم ينتفع أحد منهم بشيء من كلامه، فإنّه يلقى بوفرةٍ جزاءَ أعماله، بشرط ألاّ يهمل ما من شأنه أن يلائم جمهوره. فإنّ الله، لجودة فيه، لا يرى في إهمال الآخرين مبرّرًا للتنقيص من أجرِ ما بُذِل من جهد: فإن أصغَوا أو لم يصغُوا، فالله يُضاعف بلا شكّ مكافأتَه.

٤ – بيد أنّنا لا نبغي فقط ضمان كمال الأجر والمكافأة، بل نودّ أن نرى في إهمالكم ضررًا شخصيًّا، آخذين بعين الاعتبار منفعتَكم وخدمتكم. لذا نشعر وكأنّنا نأسر فرحتنا، خصوصاً عندما ندرك أنّ وعظنا قد أضحى سببًا لدينونة أشدَّ خطورة على الذين يقبعون في الإهمال عينه ويرفضون، بعد تحريض شديد اللهجة، أن يُفيدوا من سلسلة هذه التعاليم.

٥ – فما قاله المسيح في اليهود: «لو لم آتِ ولم أكلّمهم، لما كان عليهم خطيئة، وأمّا الآن فليس لهم عذر في خطيئتهم»[١]، لجدير

(١) يوحنّا ١٥: ٢٢.

بأن يقال، في هذه اللحظة، للذين آثروا على اجتماعنا التسلياتِ الدنيوية والاجتماعات المضرّة وسباقات الخيل والمشاهد الشيطانية. فلو لم نكن قد استبقنا الأمور فعمدنا إلى هذا التحريض الشديد اللهجة وهذّبناكم بتوبيخاتنا في كل لحظة، وبوعظنا المتواصل دعوناكم في كل يوم، كأولاد صغار، إلى انتهاج درب الفضيلة؛ وأبنّا لكم جسامة العيب حاثّين إيّاكم على تقويم سقطاتكم السالفة، لو لم نكن، كما سبقت فقلت، قد استبقنا الأمور، لكنّا وجدنا هؤلاء القوم جديرين بالغفران.

٦ - ولكن ما عذرُهم؟ ومن سيصفح عنهم، خصوصاً عندما لا يتكبّدون فقط، بسبب هذا الإهمال الفادح، خطأً جسيمًا، بل يكونون أيضاً مدعاةَ معثرةٍ للآخرين، فلا يأخذ الشيخ بعين الاعتبار عمرَه ولا نهايته القريبة، ولا حتّى فداحة خطاياه السالفة، بل يُضاعف كل يوم من مخالفاته مؤدّيًا للشباب المثل العاطل في الإهمال؟ ألا قل لي: متى يتمكّن هذا الإنسان من تقويم إهمال الفتى، هو الذي لم يوبّخه عمره، ومن تقريع الشاب المتهوّر، هو الذي يتحتّم عليه أن يؤدّي حسابًا، ليس فقط عن تصرّفه، بل أيضاً عن دروس الإهمال التي سبق فلقّنها للآخرين، وهو لم يكفّ، إزاء هذا الواقع، عن هذه العادة السيّئة؟

٧ - فكما أنّ الذي يمارس الفضيلة لا يحظى فقط بمكافأة عن أتعابه، بل يجني أيضاً ثمرة الخدمات التي أدّاها للآخرين، بحثّه العديدَ من الناس على الغيرة والاقتداء بفضيلته، كذلك أيضاً ينبغي للّذين يفعلون الشرّ أن يؤدّوا حسابًا أشدّ صرامة لكونهم مدعاة إهمال للآخرين. فبأيّة ملامة يسعنا أن نتوجّه، بعد الآن إلى الفتيان حينما

ينحرف الشيوخ إلى هذا الحدّ من الإهمال، معرضين حتّى عن تحريض الرسول القائل: «كونوا بلا معثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله»؟ [٢]

ما معنى العمل لمجد الله

٨ – أرأيت تلك النصيحة التي يأتينا بها الرسول من عمق أحشائه؟ فما تخوّفه الشديد وقلقه إلاّ من الشرّ الذي يوقعه إهمالنا بالآخرين: فهو يُدرك أنّ حثّ الآخرين على الإهمال ما هو بخطر طفيف يتعرّض له. لذا فهو ينصح، قبل كل شيء، في رسالة موجّهة إلى الآخرين، بالانصراف إلى الفضيلة: «فإذا أكلتم إذن، أو شربتم، ومهما فعلتم، فاعملوا كل شيء لمجد الله» [٣]. ألا تأمّل دقّة هذا النداء. فمهما فعلت أو أنجزت، فليكن وفق هذا الأساس وهذه القاعدة: أن تتوق إلى مجد الله وأن لا يصدر عنك شيء لا يرتكز إلى هذا الأمر: «فإذا أكلتم إذن أو شربتم، ومهما فعلتم، فاعملوا كلّ شيء لمجد الله».

٩ – ولكن كيف يقول بأنّه من الممكن أن نأكل ونشرب لمجد الله؟ فعندما تستوي إلى المائدة وتشكر المعطي وتقرّ بفضل الواهب وتمتنع عن كل محادثة أرضية، وعندما تنتصب، وقد أشبعت باعتدال رغبةَ الجسد، متجنّبًا الإفراط والنهم، فتشكر الذي منحنا الغذاء بغية إعالتنا، وقتئذ تكون قد أتممت كل شيء لمجد الله: «فإذا أكلتم إذن أو شربتم، ومهما فعلتم، فاعملوا كل شيء لمجد الله».

---

(٢) ١ كور ١٠: ٣٢. (٣) ١ كور ١٠: ٣١.

١٠ – ألا تأمّل كيف أنّ الرسول، من خلال هذه العبارة المقتضبة، قد شمل حياتنا كلّها. فإنّه بقوله «مهما فعلتم»، قد حوى حياتنا كلّها في كلمةٍ واحدة، وهو يبغي من ذلك أنّنا لا نتمّم أبدًا أعمالَ الفضيلة من أجل المجدِ البشري. فثَمَّة ما هو أكثرُ من ذلك؛ فهو بقوله «مهما فعلتم فاعملوا كلَّ شيء لمجد الله»، إنّما يُضمر في نفسه أمرًا آخر، ألا وهو التخلّي الكامل عن الأعمال السيّئة وعن كل عمل لا يمجّد سيّد الكل. فإذا كنّا نمارس الفضيلة، فلنسعَ في أن نحصل على هذا الثناء الذي من الله وحده يأتي، غير مكترثين للإطراء الذي يصدر عن الناس. أمّا إذا وقعنا في الإهمال، فثمّة أمرٌ يحطّ من ادّعائنا، وعلينا أن نرهبه، وهو الحكم الذي لا ينقضه شيء البتّة، والمجيء الرهيب في اليوم الأخير، وإلقاء البال إلى أنّ تصرّفنا يقود إلى التجديف على الله. وكما أنّه قد قيل عن الذين يمارسون الفضيلة: «إنّ الذين يكرّمونني إيّاهم أكرّم»[٤]، كذلك قيل على لسان النبي: «الويل لكم، إنّه بسببكم قد جدّف على اسمي في وسط الأمم»[٥].

١١ – ألا انظر إلى ما في هذه العبارة من إثارة. ولكن ما السبيل إلى تمجيد الله؟ إنّه في أن نحيا لمجد الله ونضيء حياتنا كلّها، بحسب ما قيل في موضع آخر: «ليضئ نوركم قدّام الناس ليرَوا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات»[٦]. فلا شيء يسهم في تمجيد سيّدنا بقدر ما يسهم المسلك الحميد. وكما أنّ الشمس تُضيءُ بشعاعها وجه الذين يحدّقون إليها، كذلك الفضيلة تبعث على تأمّلها كلَّ الذين يضعونها نصبَ أعينهم، فتحثّ العقول المستقيمة

---

(٤) ١ ملوك ٢ : ٣٠. (٥) روم ٢ : ٢٤ (رج أشعيا ٥٢ : ٥؛ حزقيال ٣٦ : ٢٠).
(٦) متّى ٥ : ١٦.

على تمجيد المعلّم. فمهما نفعل، فلنفعله على نحو يحمل الذين يُراقبوننا على تمجيد الله لأنّه مكتوب: «مهما فعلتم، فافعلوا كل شيء لمجد الله».

١٢ – وإذا رمت، على سبيل المثال، معاشرة أحد ما، فلا تفكّر في تثقيف الذين حظوا بنِعَم هذا العالم الباهر، بل في تثقيف أولئك الذين يعيشون في الضيق والبؤس والأسر، والذين أعرض عنهم الجميع فلم ينعموا بأيّة تعزية. فأمثال هؤلاء يتحتّم عليك تقديرهم في المجتمع لكي تُكسب نفسك منفعة كبرى وترقى إلى حكمة أسمى متمّمًا كلّ شيء لمجد الله. وإذا ما تعيّن عليك القيام بزيارة ما، فآثر الأيتام والأرامل وكلَّ الذين هم في غمّ شديد على من هم في بهاء المجد، إذ إنّه هو نفسُه قد قال: «أنا أبو اليتامى وقاضي الأرامل»[٧]، ويقول الربّ أيضاً: «أنصفوا اليتيم وحاموا عن الأرملة، تعالوا فنتحاجج»[٨].

١٣ – أمّا إذا أردت بكل بساطة أن تختلف إلى الساحة العامّة، فتذكّر تحريض الرسول القائل: «مهما فعلتم، فافعلوا كلَّ شيء لمجد الله». لا تهدر وقتك سدى في المخالطات الباطلة المضرّة، بل حثّ خطاك نحو بيت الله لكيما يجد فيه الجسد والنفس منفعتهما الكبرى. وإذا ما تحادثنا مع الآخرين، فلنفعل ذلك بتواضع ورقّة فائقة، ولنجتنب المحادثات الأرضية التي لا تُجدي نفعًا، وننصرف بالحريّ إلى المحادثات التي يمكنها أن تأتي بالنفع الكبير على الذين يُصغون إلينا فتعفينا من كل لوم.

---

(٧) مز ٦٧ : ٦. (٨) أشعيا ١ : ١٧.

خطورة المعثرة وضرورة الإصلاح الأخويّ

١٤ - لقد أَثرتُ الآن هذه المسألةَ أمام محبّتكم، والحافزُ على ذلك أن تُدركوا ما يتعيّن عليكم من احتراسٍ في حال انصرافِكم إلى أمر خلاصكم، وتقفوا على أمر الدينونة التي يستحقّها أولئك الذين يُؤثرون على هذا الاجتماع وعلى تعليمنا الروحيّ اللهوَ الدنيويّ والمعاشرات الباطلة المضرّة وسباقات الخيل والمشاهد الشيطانية المؤذية، فلا يصغون إلى كلام الطوباويّ بولس: «كونوا بلا معثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله»[٩].

١٥ - فأيّ صفح وأيّ عذر يمكننا أن نترجّى بعد الآن لهؤلاء القوم؟ ها هوذا مسيحيٌّ قد نال التعليم الذي نتقاسمه هنا واشترك في الأسرار الرهيبة غير الموصوفة، وها هوذا الآن بصحبة اليهوديّ واليونانيّ يتمتّع بما يتلذّذ به هؤلاء القوم. ألا قلْ لي: أويسعنا يومًا أن نعيد هذا التائه إلى صراط الحق، ونجتذبَ من جديد إلى التقوى ذاك الذي أذنب بفعل هذا الإهمال؟ أفلا يناسبنا أن نوجّه إلى المسيحيين من أمثاله ما قاله الطوباويّ بولس للذين كانوا يتردّدون إلى هياكل الأصنام في كورنثوس بعد أن نالوا كلام التقوى: «فلئن رآك أحد، أنت الذي له العلم متّكئًا في بيت الأوثان...»؟[١٠].

١٦ - أمّا نحن فاذ نغيّر قليلاً في النص نقول: ولئن رآك أحد أنت الذي عنده نورُ التقوى تمضي أيّامك في هذه المخالطات الباطلة المضرّة، أفلا يتقوّى هذا الضمير الضعيف أو ذاك على التخلّي بسرعة عن مثل هذه الاتهامات؟ إنَّ ما قاله الطوباويّ بولس بغية

---

(٩) ١ كور ١٠: ٣٢. (١٠) ١ كور ٨: ١٠.

ردع الذين يتهافتون بحماقة على هياكل الأصنام بعد إذ نالوا نور التقوى وأضحَوا للآخرين مدعاةَ معثرة، لنردّده نحن بدورنا، وباللياقة عينها، أمام الذين يُسرعون إلى هذه الاجتماعات المحرّمة، مؤثرين اللهوَ الدنيوي على الاجتماع المعقود ههنا.

١٧ - ولكن ما نفع هذا التأنيب الصارم في حين أنّ الذين يطالهم هذا الأمر غير موجودين ههنا لسماع أقوالنا؟ ومع ذلك، فإنّ تحريضنا لا يذهب سدى حتّى في مثل هذه الحال. على أنّكم إذا ما استطعتم أن تفقهوا ذلك، فإنّه لَمِنَ المُمكن أن يُبلَّغوا بواسطتكم، على الوجه الدقيق، كل ما قلناه، فيتجنّبوا أشراك الشرّير ويعودوا إلى الغذاء الروحيّ. وعلى هذا النحو يفعل الأطبّاء: فإنّهم فيما يتعوّدون المريض لا يتشاورون في أمر العلاج الموصوف معه وحسب، بل مع الأصحّاء من محيطه، فيُعلمون أقرباءَ المريض بشأن توجيهاتهم اللازمة ويُسندون إليهم أمر العلاج الموصوف. وبعدها فقط ينصرفون، وقد أتمّوا الترتيبات المطلوبة. وإنّنا بدورنا، على الرغم من غياب المرضى، نَكِلُ إليكم، أنتم الأصحّاء، الاعتناءَ بشفائهم ونكاشفكم بألم قلبنا كيما تعتنوا في المستقبل بخلاص أعضائِكم، متمّمين تحريض الرسول: «فإذا أكلتم إذن أو شربتم ومهما فعلتم فاعملوا كلَّ شيءٍ لمجد الله».

١٨ - وعندما تأخذ على عاتقك، لدى مغادرتك هذا المكان، خلاص أخيك ليس فقط بالتأنيب والتوبيخ بل بالنصح والتحريض أيضاً، وإظهار الضرر الذي تسبّبه له التسليات الدنيوية، وتبيان منفعة تعليمنا وفائدته، تكون حينئذ قد فعلت كل شيء لمجد الله وادَّخرت لنفسك أجرًا مضاعفًا، لكونك خدمت بأمانة خلاصك

وسعيت في شفاء مَن هو جزء منك. فإنّ مِنْ صُلْب وصيّة المخلّص وفخر الكنيسة ألاّ تنظر فقط إلى نفسك، بل الى القريب أيضاً.

١٩ – ألا أدرك إذن الكرامة التي يرتقي إليها كلٌّ من يعمل باجتهاد في سبيل خلاص أخيه. فالإنسان إنّما يتشبّه بالله على مقدار طاقته البشرية. إسمع ما يقوله الله بواسطة نبيّه: «إنّ الذي يُخرج النفيس من الخسيس يكون كفمي»[١١]. فالذي يدأب في خلاص أخيه المهمل ويسعى إلى انتشاله من فم الشيطان يتشبّه بي على مقدار طاقته البشرية. فهل ثَمّةَ من عمل يُضاهي ذلك؟ إنّه أعظم الأعمال الحسنة كلِّها وقمّةُ الفضائل بأسرها.

٢٠ – وإنَّ في هذا وجهًا من الحقيقة. فإذا كان المسيح قد أراق دمه لأجل خلاصنا (وبولس يصرخ في وجه الذين يعثّرون ضمير الذين يتصرّفون على هذا المنوال ويجرحونهم: «بسبب علمك يهلك الضعيف، ذاك الأخ الذي لأجله مات المسيح»)، إذا كان سيّدك قد أراق دمه لأجله، أفلا يكون من العدل أن يحثّ كلٌّ منا بكلامه على الأقلّ أولئك الذين يقعون في شباك الشيطان ويمدّ لهم يد العون؟ إنّكم سوف تفعلون ذلك، إذ تعتنون بأعضائكم اعتناء كاملاً وتُعيدون بهمّتكم إخوتكم إلى أمِّنا الواحدة. وأنا لا أشكّ في ذلك لعلمي أنّكم قادرون بدرايتكم أن تردّوا الآخرين.

على المعمَّد حديثًا أن يحافظ على الغيرة مدى الحياة

٢١ – أودّ الآن أن أتوجّه بكلمة أخيرة الى المستنيرين. فهؤلاء

---

(١١) إرميا ١٥ : ١٩.

المستنيرون الذين أدعوهم أنا ليسوا هم الذين استحقّوا الآن الموهبة الروحيّة، بل هم أولئك الذين حصلوا عليها منذ سنة أو منذ أمدٍ بعيد. فهؤلاء يستطيعون أن ينعموا دومًا بهذا الاسم إن هم أرادوا ذلك. إنّ هذا الشباب لا يعرف الشيخوخة ولا يخضع لمرض، ولا يكون فريسة لليأس ولا يذبل مع الزمن، ولا ينصاع لأمر ولا يستحوذ عليه شيء ما خلا الخطيئة التي ما هي إلاّ وزر الشيخوخة.

٢٢ – ولكي تدركَ أنّ الخطيئة هي أعظم الأمور ثقلاً، إسمع قول النبيّ: «ثقلت (آثامي) كحمل أثقل ممّا أطيق». غير أنّ الخطيئة ليست ثقيلةً فحسب، بل كريهة أيضاً، لذا فهو يضيف: «قد أنتنت جراحاتي وقاحت»[١٢]. أرأيت أنّ الخطيئة ليست حِمْلاً فحسب، بل نتانة، ومصدرُها بحسب النصّ إنّما هو «من قبل جهالتي»، والجهالة التي هي علّة الشرور كلّها. إنّ الشيخ، إذ هو شيخ بالجسد، يسعه أن يكون، بنضارة النعمة، شابًّا حديث الاستنارة. كما أنّ الشابّ، وهو شابّ بالجسد، يمكنه أن يصير هرمًا لكثرة خطاياه، لأنّ الخطيئة حالمَا يتسنّى لها الولوج، تحدث الكثيرَ من الغَضْن والدرَن.

٢٣ – لذا أتوسّلُ إلى الذين أُهِّلوا للمعموديّة حديثًا والذين نالوا هذه الموهبة سابقًا، طالبًا من هؤلاء أن يُزيلوا بالاعتراف والدموع والتوبة الصادقة الأقذارَ التي علِقت بهم، ومن أولئك أن يصونوا نضارةَ تألّقهم ويسهروا على بهاء نفسهم، لئلاّ تلتصق بهم أيّةُ لطخة بوسعها أن تُلوّثهم. أولا تروَن الذين يرتدُون ثوبًا قشيبًا كيف يُعيرون

(١٢) مز ٣٧: ٤–٥.

شديدَ انتباههم ، وهم يسيرون في الساحة العموميّة ، لئلاّ يقعَ بعضُ الوحل على ثوبهم فيُفسد بهاءَه ، مع أنّ النفس تظلّ والحال هٰذه بمنأى عن أيّ أذىً ، والثوبُ إنّما سينخرهُ الدود ويُتلفه الزمن . وهو ، ولئن تلوّث ، يسهل تنظيفه بالماء . أمّا النفس ، فإذا حدث أنْ لحقت بها قذارةٌ ما ، إمّا باللسان وإمّا بالأفكار التي تنشأ في القلب ، فالمَضرّة لها كبيرة والحِملُ عليها ثقيل والنتانةُ فيها لا تُطاق .

٢٤ – فلذلك ، إذ أخشى أنا أيضاً حِيَل العدوّ ، أواصل إرشادكم لتصونوا ثوب زفافكم في كمال نصاعته ، فتَلجوا به على الدوام هذا العُرس الروحيّ ، لأنّ ما يتمّ هنا إنّما هو في الحقيقة عرسٌ روحيّ . فكما أنّ أفراح الأعراس البشريّة تدوم سبعة أيّام ، كذلك نحن أيضاً نحتفل بهذا العرس الروحيّ طوال عدد مماثل من الأيّام ، نُعِدّ فيها لكم المائدةَ السرّيّة المليئة بالخيرات التي لا تُحصَى . ماذا أقول؟ أسبعة أيّام فقط ؟ لا بل مدى الزمن كلّه ستستمرّ لكم هذه الأفراح ، إذا ما آثرتم القناعةَ والتيقّظ وحافظتم على ثوب زفافكم سالمًا زاهيًا .

٢٥ – وهكذا يزداد العريس حبًّا لكم ، وأنتم مع مرور الزمن تظهرون أكثر ضياء وبهجة ، لأنّ النعمة تنمو بممارسة الأعمال الصالحة . يا حبّذا لو نحافظ جميعًا على المَوهبة الممنوحة لنا ، فنؤهَّل للمحبّة العلوية . بنعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّته للبشر ، الذي له مع الآب والروح القدس المجدُ والقدرة والإجلال الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور . آمين .

العِظَـةُ السّـَابعَـة

الخطيب نفسه . في أنَّ لنا فائدةً عظيمةً جدًّا من ذخائر القدّيسين الشّهداء ، وأنّه يجب ازدراء جميع الأمور الأرضيّة والتّعلّق بالروحيّة وأيّ خير يتأتّى من الصلاة والصَّدَقة ؛ وتوجُّه الى الموعوظين.

المستنيرون الجدد يجتمعون على مدافن الشهداء

١ – عندما أراد الإله المحبّ البشر أن يُظهر لجنس البشر عنايتَه العظيمة والفريدة لم يقصر عمله على خلق العالم بأجمعه، بل بسط لنا السماءَ، ومدّ اليمَّ، وألهب الشمس، وأنار القمر، وأنعم علينا بالأرض سَكَنًا، ووهبَنا جميع خيراتها غذاءً وقوامًا لأجسادنا، وإلى ذلك فقد منحنا بقايا الشهداء القدّيسين الذين نقل إليه أرواحهم – «لأنّ نفوس الصدّيقين هي، كما قيل، في يد الله»[1] – وأبقى لنا هذه الأجساد حافزًا مستديمًا منشِّطاً حتّى إذا تردّدنا الى قبور هؤلاء القدّيسين نضطرم غيرةً ورغبة في التمثّل بهم، ونذكر أمام هذا المشهد الفوزَ الذي نالوه، والمكافأة المعَدَّة لهذا الفوز.

٢ – أجل إنّها لعظيمةٌ الفائدةُ التي نجنيها لنفوسنا إذا كنّا عاقلين ومعتدلين. فما من كلمة تستطيع أن تعلّمنا وتقودنا الى الفلسفة، والى التنكّر لمغريات الحياة الدّنيا، كما تستطيعه آلامُ الشهداء التي يفوق صوتها البليغ صوتَ البوق ويُبيّن للجميع، من خلال الأعمال،

---

(١) الحكمة ٣: ١.

جزالةَ المكافأة المعدّة للآلام، وسموّ التعويض عنها. وبمقدار ما يتفوّق العمل على الكلام تتفوّق تعاليم هؤلاء القدّيسين على الأقوال التي نقولها.

٣ – فبمجيئك إلى هنا، أيّها الحبيب، وبتَدبُّرِكَ في ذات نفسك هذا الجمَّ الغفير من الشعب، يتهافتُ الى ترابهم لتقبيله واستمدادِ بركته، كيف لا تأخذُكَ الرّغبة الملحّة في اللحاقِ بهم، وإظهار الشوق الذي حمل الشهيد على الشهادة، فتكون جديرًا بالمكافأة التي نالوها؟ فتأمّل أنّه إذا كان التكريم الذي نؤدّيه لهم ههنا، نحن شركاءهم في العبوديّة، بهذا المقدار، فكم يكون عظيمًا التكريمُ الذي سينالونه من سيّد الكلمة الصريحة في ذلك اليوم الرهيب عندما يأخذون في التألّق كالأشعّة الشمسيّة. وقد قيل: «حينئذ يُضيء الصدّيقيون كالشمس»[٢].

٤ – وإذ قد عرفنا عِظَم المنزلة التي لهم كان علينا أن نلجأ أبدًا اليهم ونحصلَ على عونهم. ولئن كان البشر الذين نالوا حُظوة لدى ملك الأرض يستطيعون أن يقدّموا الأمورَ الكثيرة والعظيمة لمن يلجأ إليهم، فهؤلاء القدّيسون الذين نالوا بآلامهم حظوة لدى ملك السماوات يستطيعون أن يقدّموا الأكثر والأعظم، وذلك بشرط أن نشاركهم في أعمالهم. حينئذٍ وبنوعٍ خاص يمتدّ إلينا عونُهم، إذا لم نتوانَ ولم نألُ جهدًا في ضبط حياتنا بحيث تنسكب علينا رحمة السيّد.

---

(٢) متى ١٣ : ٤٣.

الشهداء أطبّاء روحيّون يشفون أمراض الجسد والروح

٥ – فلنلجأ إذن إلى هؤلاء الأطبّاء الروحيّين في غير انقطاع. لأجل ذلك ترك لنا السيّد الصالح أجسادهم، حتّى إذا جئنا الى هنا وقبّلناها بكل ما في نفوسنا من طاقة نحصل على دواء لأمراضنا النفسيّة والجسديّة. وهكذا فإن أقبلنا بإيمان، وفينا آلام نفسيّة وجسديّة، نرجع وقد نلنا لها الطبّ الملائم.

٦ – في ما هو من أمراض الجسد كثيرًا ما يتطلّبُ منّا الوقوعُ على يَدي طبيب تغرّبًا بعيدًا، وبذَل نفقات، والتوسّلَ بأمور أخرى كثيرة من شأنها أن تحملَ هذا الرجل على بذل معارف مهنته، فنجد نجاة من دائنا. أمّا هنا فليس علينا شيء من تلك الأمور، فلا أسفار بعيدة، ولا مشقّة، ولا محاولات كثيرة، ولا إنفاق مال؛ يكفي التقدّم بإيمان صحيح، وسكبُ الدموع الحارّة، مع نفسٍ منسحقة للحصول على طبّ النفس وعلاج الجسد.

٧ – هل ترى مقدرة الأطبّاء؟ هل ترى حدْبهم على البشر؟ هل ترى فنّهم الذي لا تستعصي عليه الأمراض؟ ومع ذلك فكثيرًا ما تغلّبت شدّة المرض على طبابة الأطبّاء. أمّا هنا فلا شيء يمكن أن يُعتبر هكذا. فإذا تقدّمنا بإيمان جنَيْنا حالاً الفائدة. لا تعجب أيّها الحبيب! فإنّ السيّد المحبّ البشر الذي لأجله ولأجل عقيدته تحمّلوا كلّ شيء، وبذلوا دمهم نفسَه متجرّدين من الخطيئة، أراد لهم، ومن أجل هذا الذي بذلوه، أن يَظْهروا متلألئين بالنّور، وأن يجعلَ مجدهم وفيرًا حتّى في هذه الحياة الفانية، فيجود، كُرمى لهم، بمواهبه على الذين يُقبلون عليهم بإيمان.

٨ – وليست وحدها الكلمات التي نقولها هي الشهادة والدليل ، بل هنالك شهادة الأعمال ، وأنتم أنفسكم ، كما أرى ، تؤيّدون وتشهدون .

تلك المرأة التي أُبعِدَ زوجُها ، وكان لها من فراقه مشقّة ، بمجيئها إلى هنا ، وباستشفاعها الشهداء القدّيسين لدى سيّد الكلّ ، ألم تسترجعْه من منفاه البعيد في وقت أسرع؟ وتلك الأخرى ، وقد رأت ابنها تحت وطأة مرض خبيث ، فتلوّعت وتمزّقت أحشاؤها ، وبمجيئها الى هنا ساكبةً دموعًا حارّة ، ومستشفعةً في صلاتها هؤلاءِ القدّيسين الذين هم بحقّ مُكلَّلو المسيح ، ألم تطرد المرض في الحال وتُعِدِ العافيةَ إلى المريض؟

٩ – كثيرون هم الذين أطبقت عليهم الشدائد ، ورأَوا الأخطار الشديدة تُحدق بهم ، فهرعوا الى هنا وأغرقوا في الصلاة ، ونجوا من محنة تلك المخاوف جميعها ، وماذا أقول عن الأحوال المرضيّة في الأجسام وعن زحمة الشدائد؟ كثيرون هم الذين آذاهم الشيطان نفسه ، وتراكمت عليهم الآلام النفسيّة ، فتسارعوا إلى أطبّاء النفس هؤلاء ، ذاكرين ذنوبهم الخاصّة ، وكاشفين بلسانهم عن عاهتهم ، فنالوا من هنا العزاء كما داخَلهم الشعورُ بزوال الثقل عن ضميرهم ، وقفلوا عائدين إلى منازلهم وهم على ملء الثقة بالغفران.

١٠ – ينابيع روحيّة من شأنها أن تندفق مجاريَ مياهٍ غزيرة ، تلك هي مدافن الشهداء القدّيسين التي أنعم علينا بها السيّد. وكما أنّ ينابيع المياه هي في مُتناوَل جميع من يبغون الورود ، وأنّ كلّ وارد يستطيع أن يحمل من تلك المياه ما يَسَعُ إناؤهُ ، كذلك الينابيع الروحيّة ، كما نرى ، فإنّها مُشْرَعة للجميع ، وليس في الأمر هنا

مُحاباةٌ للوجوه، فالغنيّ والفقير، والعبدُ والحرّ، والرجل والمرأة، كلٌّ إنسان يعبّ من هذه المجاري الإلهيّة بمقدار ما أضرمت الغيرة في نفسه الشوقَ إليها.

١١ - فكما الآنية التي تُسْتَقى بها المياه هناك. تكون هنا يقظةُ الروح، واضطرام الشوق، والإقبال في انضباط. والذي لا يتقاعس في الإقبال على هذه الحال لا يعتّم أن ينال خيرات عجيبة، فنعمة الله تخفّف في الخفاء عبءَ ضميره، وتغمره بطمأنينةِ اليقين، وتُعِدّه للتفلّت من ترّهاتِ الأرض، والتوجّهِ الى السماء. وإنّه لَمِن الممكن للإنسان الغارق في الجسد أن لا يكون له ما للأرض، بل يكون لكل ما في السماوات، ويصبو أبدًا إليها.

طلب الخيرات العلويّة دون سواها

١٢ - لأجل هذا كتب بولس لرجالٍ غارقينَ في مادّةِ الجسد، ومنهمكين في غمرة الحياة الدّنيا بين همِّ الزوجةِ وهمِّ الأبناء، وقال لهم: «ابتغُوا ما هو فوق»[٣]. ولكي ندرك ماذا يعني بتحريضه هذا، وما هو هذا الابتغاء للفوقيّات أضاف: «حيث المسيح جالس عن يمين الله»[٤]. قال: إنّي أريد أن تطلبوا الأمور التي من شأنها أن ترقى بتفكيركم إلى العلاء، وأن تنتزعكم من شواغل الأرض. «إنّ مدينتكم في السماء». هنالك اكتنبتم - على حدّ قوله - وإلى هنالك يجب أن تُعنوا بتوجيه كامل تفكيركم، وأن تتوفّروا على عملٍ ما من شأنه أن يُظهركم أهلاً لهذه المُواطِنيّة.

(٣) كول ٣ : ١. (٤) كول ٣ : ١

١٣ – ولكي لا يُداخلنا التَوهّـمُ بأنّه يطلب المستحيل، وبأنّ ما يطلبه فوق طاقة طبيعتنا، يكرّر الحثّ قائلاً: «إفطنوا لما هو فوق لا لما هو على الأرض»[٥]. فماذا يريد أن يلقّننا؟ يقول: لا تبتغوا الأمور التي من شأن الأرض. وما الأمور التي من شأن الأرض؟ إنّها الأمور التي ليس لها استقرار، التي تطيرُ قبل أن تظهر، التي لا رسوخَ لها ولا ثبات، التي تتلاشى بتلاشي الحياة الحاضرة، التي تذبل قبل أن تزهر. تلك حال جميع الأمور البشريّة: من غنى، وسلطان، ومجد، وجمال جسديّ وما إلى ذلك من نِعَم الحياة.

١٤ – من أجل ذلك استعار هذا التعبير وقال: «لا لما هو للأرض». باغيًا أن يُظهر ما لأمور الأرض من حقارة شديدة. لقد قال: لا تبتغوا هذه الأمور، بل ابتغوا ما هو فوق. واستبدلوا من أمور الأرض الحقيرة والسريعة الزوال أمورَ العلاء، تلك التي في السماوات التي لا تَـحُول ولا يكون لها أبدَ الدهر نظير، تلك التي تُرى بعيون الإيمان، والتي لا نهايةَ لها، ولا تقطُّع فيها، ولا حدّ لامتدادها. حول هذه الأمور أريد أن يدور أبدًا تفكيركم، والانشغال بهذه الأمور ينتزعنا من الأرض ويُلحِقنا بالسماء.

١٥ – وفي هذا الصدد قال المسيح: «حيث يكون كنز الإنسان هناك يكون قلبه»[٦]. والنفس إذا حصرت همّها في هذه الخيرات العجيبة تكون كأنّها قد تفلّتت من حبائل الجسد، وأصبحت –كما يقال– في فلك انطلاقها. وهي في تَمثُّلِها ذاتَها كلَّ يوم مستمتعةً بتلك الخيرات يصبح من المتعذّر عليها التطلّعُ إلى أمور الأرض، بل

(٥) كول ٣ : ٢. (٦) متّى ٦ : ٢١.

تصبح لديها جميع تلك الأمور بمثابة الحُلم والظلّ. وهكذا في تَـوْقها المتواصل إلى أمور العلاء، وفي تصوّرها أنّها تكاد تراها بعيون الإيمان، تصبح أبدًا في تحرُّقٍ إلى التمتُّع بها.

١٦ - فلنستمع إذن لنداء الطوباويّ، وهو معلّـمُ المسكونةِ العجيب، ومروّضُ نفوسِنا وحارثُها الصالح، ولنفكّر في المقارنة التي أقامها. وهكذا نستطيع أن ننعم بالحاضرات وأن نتوقّع الحصول على الآتيات. فإذا طلبنا أوّلاً خيراتِ السماء زيدت لنا خيراتُ الأرض. لقد قيل: «اطلبوا ملكوت الله وبرّه وهذا كلّه يُزاد لكم»(٧). فليس لنا أن نجعل من الزيادة مطلبَنا الأوّل، ولئن فعلنا وخرجنا عن إرادة السيّد كنّا في خطرِ إضاعةِ هذه وتلك. وهل ينتظر السيّد نداءنا حتّى يفطن لأمرنا ويمنحنا مواهبه؟ إنّه يعلم بما نحن في حاجة إليه قبل أن نطلبه، وهو عندما يرى أنّ همّنا في أمور السماء يطيب له أن يُـمْتِعَنا بها وأن يَـغْـمُـرَنا بالأخرى التي تبرّع لنا بها على سبيل الزيادة. فلنطلب إذن أوّلاً الأمورَ الروحيّة، ولنفكّر في أمور العلاء، لا في أمور الأرض، حتى ننعم بتلك ونتمتّع بهذه.

على مثال الشهداء القدّيسين

١٧ - وإذ فكَّر الشهداء القدّيسون في أمور العلاء، وحَـقَروا أمور الأرض، نالوها في غزارة. كما نالوا ههنا التكريم اليوميّ. وإنّهم، وإن كانوا في غنى عن هذا التكريم، الذي لم يأبهوا له، فهم يرتضونه نافِلةً يكون لنا منها نفعٌ نستطيع به أن نجني البركة التي تأتي بهم.

(٧) متّى ٦ : ٣٣.

١٨ – ولكي تعلم كيف حَقَروا جميع ما للحياة الدنيا من شؤون في سبيل الخيرات التي لا تزول تأمّل، أيّها الحبيب، في ذات نفسك أنّهم كانوا ينظرون بعيون الجسد إلى الطّاغية مُسعِرًا النار، ومرهفًا الأنياب، يسترسلُ في هياجٍ أشدَّ عنفًا من هياج الأسد، ويُكِبّ على إضرام النار في الأتُّون وتحت الخلاقين، ويسعى جُهدَه في تذليل إرادتهم والتغلّب عليها، وهم في تخلّيهم عن شتّى أمور الأرض كانوا يشاهدون بعيون الإيمان مَلِك السماوات، يُطيف به جمهورُ الملائكة، فتتمثّل لهم تلك الخيرات التي تفوق الإدراك.

١٩ – وإذ كان فكرُهم هناك مُستقرًّا تعذّر عليهم من بعد الالتفاتُ إلى المرئيّات: كانوا يرون أيدي الجلاّدين ممزّقةً لحومهم، وينظرون إلى النار الحسيّة مسعورةً، وإلى الجُذَى متوهّجةً زافرة، وهم يتمثّلون في ذلك كلّه نارَ جهنّم وينشّطون عَزْمتهم، وكأنّي بهم يَثِبون إلى الأهوال وثبًا، غير مكترثين للألم الذي سيُرمضُ جسدهم، ولكنّهم يتحرّقون إلى الراحة التي لا حدّ لها ولا نهاية. وإذ فكّروا –جريًا مع تحريض الرسول الطوباويّ– في أمور العلاء انتهوا إلى حيث يقيم المسيح جالسًا إلى يمين الله. ولا شيءَ ممّا يرونه كان يُخيفهم، بل كانوا يتجاوزونه وكأنّه في نظرهم حُلم أو ظلّ. فتَوْقهم إلى الأمور الآتية كان يُجنّح عزيمتهم.

لأنّ من اعتمد مات عن العالم

٢٠ – وإذ كان الرسول الطوباويّ مدركًا ما لهذه الحقيقة من قوّة قال: «إفطنوا لما هو فوق حيث يُقيم المسيح جالسًا إلى يمين الله»[٨].

(٨) كول ٣: ١.

تأمَّلْ في حكمة المعلّم إلى أيّ حدّ ترتقي بالذين ينقادون له. إنّه يخترق جميع مصافّ الملائكة، ورؤساء الملائكة، والعروش، والقوّات، والسلطات، جميع تلك القوى غير المنظورة، الشيروبيم والسيرافيم، ويَـرْكُزُ أفكار المؤمنين عند العرش الملكي، ويحصل، بجملةِ هذه التعاليم، من لا يزالون في مسيرة الأرض، على التفلّت من قيود الجسد، والطيران بالروح إلى من هو سيّد الكلّ.

٢١ – ولكي لا يعودَ سامعو هذه المشورة إلى التفكير في أنّها تفوق طاقتهم، وفي أنّ هذه الوصايا غيرُ ممكِنةِ التطبيق، وفي أنّه يتعذّرُ على القوى البشريّة تحمّلُ مثل هذه الفكرة في قوله «افطنوا لما هو فوق لا لما هو على الأرض» أضاف قائلاً: «فإنّكم قد مُتُّم»[٩]. فيا لها من نفس ناريّة تضطرم شوقًا إلى الله! لقد قال: «إنّكم قد متّم»، وكأنّي به يقول: ما لكم وللحياة الدّنيا بعد؟ وفيمَ تتجشّعون إلى أمور الأرض؟ إنّكم قد متُّم، أي إنّكم قد صرتم أمواتًا للخطيئة، وتنكّرتم تنكّرًا تامًّا للحياة الحاضرة.

٢٢ – ولكي لا يضطرب سامعو «إنّكم قد متُّم» أضاف في الحال: «وحياتُكم مستترة مع المسيح في الله»[١٠]. يقول: إنّ حياتكم لا تظهر الآن لكونها مستترة، فلا تتصرّفوا كأحياء بالنسبة إلى أمور الحياة الحاضرة، بل كمن ماتوا بلا حياة. ألا قل لي: هل يجوز لمن مات لهذه الحياة أن يسعى في سبيل الأمور الحاضرة؟ كلاّ! قال الرسول: تلك حالكم قد متُّم للخطيئة بالمعموديّة ولم يبقَ لكم ما يربطكم بنزوات الجسد وأمور الأرض. لقد قال: «إنّ إنساننا

(٩) كول ٣: ٣.
(١٠) كول ٣: ٣.

العتيق قد صُلب ودُفن معه بالمعمودية»[11]. فاقطعوا كلَّ صلةٍ بما على الأرض، ولا تتصرّفوا كأحياء بالنسبة إلى الأمور الحاضرة، فإنّ حياتكم الآن مستترة وخفيّة في نظر غير المؤمنين، وسيأتي حينٌ تُصبح فيه ظاهرة. ليس الآن زمانُكم، فليس لكم وأنتم مائتون كلَّ الموت أن تميلوا إلى طلب ما على الأرض. وعَظَمة فضيلتكم ستظهر بمقدار ترفّعكم بالفكر عن الجسد وبمقدار انصرافكم، وأنتم أمواتٌ بالنظر إلى هذه الحياة، عن جميع الأمور المتعلّقة بهذه الحياة.

٢٣ - فليسمع هذه الحقائق أولئك الذين استحقّوا منذ قليل نعمة المعموديّة، ولا تغربْ عن بالنا نحن الذين تقبّلنا هذه النعمةَ قديمًا. ولنُقْبِل في رضى على مشورة معلّم المسكونة، ولْنُدرِكْ الأمورَ التي يفترضها على الذين أصبحوا مشتركينَ اشتراكًا ثابتًا في هذه الأسرار الخارقة، كيف يكونون غرباء عن الحياة الحاضرة، لا بالخروج من هذا العالم ولا بالانعزال في مكان بعيد، بل أن لا يختلفوا، وهم في قلب العالم، عن الذين ابتعدوا عنه، وأن يتألّقوا كواكبَ نورٍ ويظهروا بأعمالهم لغير المؤمنين أنّهم انتقلوا إلى مدينةٍ أخرى، وأنّهم قطعوا كلّ صلة بالأرضِ وبالأمور التي على الأرض.

الصلاة والصدقة وسيلتان فعّالتان لِلحفاظ على ألَق ثوب المعمودية

٢٤ - وكما أنّكم بملابسكم الزاهية تَلْفِتون الآنَ أنظارَ الناظرين جميعًا، وتُعبّرون بأَلَق ثيابكم عن الطهارة السامية في نفوسكم، كذلك يجدر بكم، أنتم الذين استحقَقْتُم أن تنالوا الآن نعمة

(١١) رو ٦ : ٦.

المعموديّة، وأنتم جميع الذين وُهِبتموها فيما قبل، أن تُظهروها للجميع بالسّيرة المُثلى، وأن تكونوا منارة هَدي لجميع الناظرين. وهذا اللباس الروحي، إذا أردنا أن نحافظ على أَلَقِه، يزداد أَلَقًا مع الزمن، وتتَّسِع دائرة إشعاعه، وهذا ما ليس للملابسِ الماديّة قِبَلٌ به. ولو أَوْلَيْنا هذه الملابسَ من العناية قدرًا لا حدّ له، فإنّ يد الزمان تعبث بها، وكرّ الأيّام يُبليها، (والعثّ) والديدان تنخرُها إن أُهْمِلت، وعوامل أخرى كثيرة تذهب بهذه الملابس الماديّة. أمّا ثوب الفضيلة فإنّه، إذا ما أولينا أمره اهتمامًا، لا يلحقه وَضَرٌ البتّة، ولا يُؤثِّر به كرّ الأيّام، بل يزدادُ مع تطاولِ الزمن أَلَقًا، ويتجدَّد جمالاً، ويزيد في نوره إشراقًا.

٢٥ - أرأيتَ ما لهذا الثوب من مَنَعة؟ أرأيتَ أَلَقَ لباسٍ لا يخضع لعوامل الزمن، ولا يذهبُ به كرُّ الأيّام؟ أرأيتَ هذا الجمال الذي لا يَنْضب؟ فلنَعْمَلْ باهتمام–وأنا أحرّضكم على ذلك–فلنَعْمَلْ على صيانة هذا الجمال في أَوْجِهِ، ولْنُعْنَ بمعرفةِ ما يُمكّن من الحفاظ على أَلَق هذا الجمال. وما هو هذا؟ إنّه قبل كلّ شيءٍ الصلاةُ المتواصلة وشكرُ مَا نِلْنا من نِعَمٍ، واستدامةُ المواهب التي أُكْرِمْنا بها. في ذلك خلاصُنا، وبلسمُ نفوسِنا، وطبُّ الأهواء التي تنبعثُ في النفس. الصلاة هي حِصْن المؤمنين. الصلاة هي سلاحنا الذي لا يُقهر. الصلاةُ هي طَهُوُر نفوسنا. الصلاة هي فداءُ خطايانا. الصلاة هي مصدر خيراتٍ لا تحصى. ذلك أنّ الصَّلاة ليست سوى حديثٍ مع الله، ومخاطبة لسيّد الكلّ. وأيّ إنسانٍ أشدُّ سعادةً من الذي استحقّ أن يُخاطِب السيّد مخاطبةً لا تنقطع؟

٢٦ - ولكي تُدرك ما هو هذا الخير، فكّر معي بالذين

استهوتهم الأمور الحاضرة، الذين لا يختلفون في شيء عن الظلال. لئن شاهدوا أحدًا لا يكفُّ عن التحدّث إلى ملك على الأرض، أفلا يعدّون عمله أمرًا عظيمًا، ويُعلنون أنّه أسعدُ إنسان، ويتحلّقون حوله وكأنّه شخص عجيب خُصَّ بشرفٍ سامٍ؟ وهذا الإنسانُ الذي يتحدّث إلى شخص من بني جنسه ومشتركٌ معه في طبيعته، والذي يتحدّث عن أمور حياتيّة وزائلة، إذا عُدّ هكذا مرموقًا، فما القولُ بإنسانٍ استحقّ أن يتحدّث إلى الله، لا في شؤون الأرض، بل في أمر مغفرة الخطايا، في المسامحةِ بالذنوب، في استدامة النعم الموهوبة، في المواهب المستقبليّة، في الخيرات الأزلية؟ هذا الإنسان أشدّ سعادةً من الذي يَسْتَكِفُّ بالتاج، وهو الذي تمكّن بالصلاة أن يستميل كفّة ميزان العلاء.

٢٧ – الصلاة هي التي تستطيع، قبل كلّ شيء آخر، أنّ تحافظ لنا على ألَق هذا اللباس الروحيّ، ومعها الصدقة السخيّة، مصدر خيراتنا وخلاصُ نفوسنا. اقترانُ الصدقة بالصلاة يستطيع أن يَجْتلب علينا ما لا يُحصى من الخيرات العُلْويّة، وأن يُخمِد نار الإثم في نفوسنا، ويُخوّلنا كثيرًا من الحريّة والصراحة في القول. وإذ اعتمد كورنيليوس هذه الطريقة رفع صلواته إلى السماء، فسمع الملاك يقول له: «إنّ صلواتِك وَصَدقاتِك قد صعدت أمام الله تذكارًا» (١٢).

(١٢) أع ١٠: ٤.

على مثال كورنيليوس قائد المئة

٢٨ - أرأيتَ هذا الرجل، وقد طَوى حياته كلّها في معطف الجنديّة ونطاقها، كيف حصل على الحريّة والصراحة في القول؟ فليسمعِ الذين اتّسمُوا بسِمة الجنديّة، وليعلَمُوا أن لا حاجز بين الفضيلة والإنسان الذي يريد الانضباط، وأنّه من الممكن للابس معطف الجندية ونطاقها، الذي له امرأةٌ وعليه عيالةُ أولادٍ، ومسؤوليّةُ خدَمٍ، والقيام بمهمّة، أن يُولي الفضيلةَ اهتمامًا كبيرًا. إليكم هذا الرجلَ العجيب الذي يلبس معطفَ الجنديّة ونطاقها، ويقود الجند، إذ كان قائدَ مئة، فإنّه استحقّ اهتمام السماء عندما أراد وانضبط وكان يقِظاً.

ولكي تعرف بدقّة أنّ نعمة العلاء تهبطُ علينا عندما نولي أمورَ الفضيلة اهتمامًا رئيسيًّا، إسمع تلك القصّة. بدأ كورنيليوس ببذل الصدقاتِ الكثيرة والسخيّة، وأَكبّ على الصلوات المتواصلة، وقد روى أنّه فيما كان يصلّي رأى ملاكًا يقف به ويقول: «يا كورنيليوس، إنّ صلواتك وصدقاتك قد صعدت أمام الله تذكارًا» (١٣).

٢٩ - لا نَجُوَزنَّ هذا القولَ في تسرّعٍ، ولنفكّر مليًّا في فضيلة هذا الرجل فندركَ عند ذلك محبّة الله للبشر، كيف أنّه لا يزدري أحدًا، وأنّه، بخلاف ذلك، كلّما رأى نفسًا ذات انضباط غمرها بنعمته. فكورنيليوس رجل عسكريّ، مجرّد من كل ثقافة، تُكبّله هموم الحياة، وتُطبق عليه وتتجاذبه كلّ يوم ألوفُ من الأمور، لم

(١٣) أع ١٠: ١-٤.

يُنْفِق حياته على الولائم والسكر والبِطْنَة بل على الصلوات والصدقات، وقد أظهر من ذات نفسه هذه الغيرةَ الشديدة، ودأَبَ على الصلاة، وأكثر من التصدّق، وهكذا ظهر أهلاً لهذه الرؤيا العظيمة.

٣٠ – أين هم الآن أولئك الذين يهيّئون الموائد الفاخرة والذين يسكبون الخمر الصافية في غير قصد، والذين يقضون نهارهم كلّه في الولائم، وكثيرًا ما يهملون الصلاة قبل تناول الطعام، ولا يرفعون صلاة الشكر بعده، وهم يحسُبون بكل وقاحة أنّه يجوز لهم أن يفعلوا كل شيء لكونهم في مراكز السلطة، ولكونهم معدودين في مصفّ الجُنْد ويلبسون معطف الجنديّة ونطاقها؟ فلينظروا إلى دُؤوب كورنيليوس على الصلاة، وإلى سخائه في التصدّق، وليتوارَوا عن الأنظار!

٣١ – وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الدرس لا يتوجّه إلى هذه الفئة من الناس دون سواها، بل يتوجّه إلينا جميعًا، وإلى الذين التزموا حياة الرهبان، والذين نذروا أنفسهم للخدمة الكنسيّة. فمن منّا يستطيع التَّبَاجُح بأنّه أظهر دُؤُوبًا على الصلاة أو كان وافر التصدّق بحيثُ أصبحَ أهلاً لهذه الرؤيا العظيمة؟ وإنّي، والحالة هذه، أدعوكم، إذا كنّا قد أغفلنا هذه الأمور قبلاً، أن نقتدي منذ الآن بقائد المئة، سواءٌ كنّا منخرطين في سلك الجنديّة أو كنّا نحيا حياةَ عامّة الشعب، وقد أُهِّلْنا لنَيْل هذه المواهب الكريمة، فلا نكون دون لابس معطف الجنديّة ونطاقها الذي أظهر هذه الفضيلة العظيمة. وهكذا نستطيع أن نحافظ للباسنا الروحيّ على أوج جماله إذا أظهرنا حرصاً شديدًا على القران فيما بين هاتين الفضيلتين.

٣٢ – وإن شِئْتم أَضَفْنا إلى هاتَين الفضيلتَيْن فضائل أخرى من شأنها أن تحافظ على نضارة هذا الثوب أعني القناعة والطهارة. قال الرسول: «اقتفوا السلامَ والقداسة التي بدونها لا يُعاينُ الربَّ أحد»[١٤]. فلنَقْتفِ كلَّ الاقتفاءِ فضيلةَ السلام هذه، ولْنَسْبُرْ أغوارَ فكرنا في كل ساعة، ولا ندع أيّ كدرٍ أو أيّةَ لطخةٍ من لطخات الأفكار الشريرة تدنّس نفسنا.

٣٣ – وإذا طهّرنا أفكارنا، وأَوْلَيْنا هذا الأمرَ كلَّ اهتمامنا، كان من الأيسر علينا السيطرة على الأهواء الأخرى، وهكذا نبلغُ شيئًا فشيئًا قمّة الفضيلة، وبالزاد الروحيّ الوافر الذي نكون قد تزوّدناه من ههنا نستطيع استحقاق تلك النعم السامية التي هيّأَتْها عنايةُ الله لمُحِبّيه، والتي نرجو الحصول عليها بنعمة ربّنا يسوع المسيح ومحبّته للبشر، الذي له مع الآب والروح القدس المجدُ والقدرة والإجلال، الآن ودائمًا وإلى دهر الدهور. آمين.

(١٤) عبرا ١٢: ١٤.

العِظَـةُ الثَّـامِنَـة

من الخطيب نفسه. ترحيبٌ وإطراءٌ للوافدين من الأرياف، وأنّ جميع الصدّيقين الذين أُبلغوا رسائل حسيّة جعلوا تفكيرهم في الفكريّة دون الحسيّة، ونحن الذين بخلاف ذلك أُبلغنا رسائل فكريّة صَبَوْنا الى الحسيّة، وأنّه يُحمد التردّد الى الكنيسة صباح مساء لأداء الصلاة والشكران؛ وتوجُّه الى الموعوظين.

إطراء المستمعين الآتين من الأرياف

١. مُعَلِّموكم الصالحون قدّموا لكم، في هذه الأيّام الأخيرة، ما يكفي من الغذاء الروحيّ، وقد أفدتُم من إرشاداتهم الروحيّة إفادةً غيرَ محدودة، وشاركتم في البَركات الجزيلة المُسْتَمَدَّة من ذخائر الشهداء. فهيّا بنا اليوم وقد ازداد حَفْلُنا تألّقًا بالمتدفّقين علينا من الرّيف، ولنقدّم لهم مائدةً روحيّة حافلة تفيض بمحبّةٍ عظيمة تُقابل تلك التي ظهرت لنا منهم. وفيما نقدّم لهم هذه المكافأة ونُقدّر موقفهم بالنسبة إلينا نرى لزامًا علينا أن نُظهر لهم حُسْن الضيافة. وإذا لم يتردّدوا في اجتياز مسافة الطريق الطويلة هذه لكي يوفّروا لنا بحضورهم فرحًا عظيمًا، فمن حقّهم علينا بالأحرى أن نقدّم لهم اليوم مزيدًا من هذا الغذاء الروحيّ، حتى يعودوا من هنا إلى منازلهم مزوَّدين بهذا الزّاد العظيم.

٢. إنّهم إخوةٌ لنا، وهم يتمتّعون بعضويّةِ جسد الكنيسة. فلْنَحتضِنْهم كأعضاءٍ لنا، ولنُظهر لهم محبّةً حقيقية، ولا ننظر إلى أنّهم يَرْطنون في لغتهم، بل فلنعتبر بكل دقّة ما في نفسهم من حكمة، لا أنّ لهم لغةً بربريّة؛ وَلْندرِكْ عمقَ فكرتهم، وأنّ ما نعمل

على تلقينه نحن من الحكمة بالكلام ، يُظهرونه هم بالعمل ، منفّذين بالفعل الوصيّة الرسولية التي تقضي بأن يُحصَّل الغذاء اليوميّ بعمل اليدَيْن .

٣. إنّهم سمعوا الطوباويّ بولس يقول : «نتعب عاملين بهذه الأيدي» [١] . ويقول أيضاً : «إنّ هاتين اليدين كانتا تخدمان حاجاتي وحاجات من كان معي» [٢] . إنّهم يجهدون في تنفيذ ذلك بأعمالهم ويعبّرون بلغةٍ أبلغ من كلام الخطباء . وهكذا ظهروا بأعمالهم أهلاً للطوبى التي فاه بها المسيح إذ قال : «طوبى للذي يعمل ويعلّم» [٣] . وهكذا فعندما يجري التعليم بالأعمال تزول ضرورة التعلّم بالكلام . وإنّها لظاهرة فريدة أن ترى الآن كلّ واحد منهم تارة منتصبًا أمام الهيكل المقدّس يتلو النُّظُمَ الإلهيّة ، ويعلّم من يلوذون به ، وتارة ناشطاً إلى معالجة الأرض ؛ تارةً مجريًا المحراث يَخُدّ في الأرض الأخاديد ، ويُلقي البذار في أحنائها ، وتارةً متناولاً محراثَ التَّعليم يُلقي في نفوس التلاميذ بذارَ المعارف الإلهيّة .

٤ . لا نلتفتنّ فقط الى ملابسهم ولا إلى لهجة كلامهم ، وَلْنَعْدُ ذلك الى فضيلتهم ، ونتعرّف حياتهم الملائكية وسيرتهم الحكيمة . إنّهم بعيدون عن كل أَشَر وكل بِطْنة ، ولم يقتصروا على ذلك ، بل ابتعدوا عن سائر أنواع الرّخاء الشائعة في المدن ، ويكتفون من ذلك بما يستطيع أن يسدّ رمقهم ، وهم يشغلون كل ما تبقّى من وقتهم بالعكوف على التّسبيح ومواصلة الصلوات سالكين في ذلك المسلكَ الملائكيّ .

---

(١) ١ كور ٤ : ١٢ .
(٢) أع ٢٠ : ٣٤ .
(٣) متى ٥ : ١٩ .

٥. فكما أنّ هٰذه القوّاتِ التي لا أجسادَ لها تقتصر في عملها على أمر واحد دون سواه، هو مجرّد التسبيح لخالق الكلّ، كذلك شأنُ هؤلاء الرجالِ الأفذاذ، فإنّهم، وإنْ شدُّوا الى تلبية حاجة الجسد، هم المرتبطون بالجسد، يدْأبون في سائر وقتهم على التسبيح والصلاة، مُعْرِضين إعراضاً شديدًا عن تخيّلات هذه الحياة. وبسيرتهم المُثْلى يَجْهدون في حَمْل ذويهم على الاقتداء بهم. فمَنْ لهم بالتّهنئة المُوفية، وهم لم يتلقّوا التعليم من الخارج وقد ثَقِفوا الحكمة الحقيقية، وأظهروا بأعمالهم حقيقة الكلمة الرسوليّة التالية: «ما هو جهالةٌ لدى الله حكمة لدى البشر»[٤].

٦. أنظُرْ الى هذا الرجل الخشن والريفيّ. إنّ عِلْمه لا يمتدّ إلى أكثر من الحراثة والاهتمام بالأرض، وهو إذ لا يُقيم أيّ وزن لأمور الدنيا، ينطلق بفكره إلى ما ينتظرنا من الخيرات في السماء، ويعرف الإنعام في هذه الخيرات السامية، ويُدرك بدقّة ما لم يتوصّل الى تصوّره الفلاسفةُ المتباهون بلحيتهم وعصاهم. كيف لا نتلمّس في ذلك برهانًا واضحًا على قدرة الله؟ قل لي من أيّ مصدر آخر تصدر فلسفة عظيمة كفلسفة الفضيلة هذه، وإعراضٌ عن المنظورات، وإيثارٌ للخفيّات وغير المرئيّات التي لا توجد إلاّ في الأمل على الأمور الظاهرة التي بين أيدينا؟ إنّه الإيمان. فالخيرات التي وعد بها الله، وإن خفيت عن عيون الجسد، تبدو معه أكثرَ جدارةً بالتصديق من تلك التي تظهر للعيان وتقع تحت نظرنا.

(٤) ١ كور ١ : ٢٥.

إيثار الخيرات الروحيّة : مثال إبراهيم

٧. هكذا فكّر جميع الصدّيقين فاستحقّوا تلك الخيراتِ السامية. هكذا أعلن الربّ عن الجَدِّ إبراهيم أنّه تجاوز ضُعفَ الطبيعة البشرية وامتدّ بكلّ روحه الى قدرة الذي وَعَد. لهذا أُعلن في الكتاب الإلٰهيّ : «آمن إبراهيم بالله فحُسِب له ذلك برًّا» (٥) . ولهذا أيضاً سمع في البدء : «إنطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك الى الأرض التي أريك» (٦) فأطاع في انطلاقٍ شديد ، وأقبل على العمل في غير تلكّؤ ، وغادر بيتَهُ والأرضَ التي ضَرب فيها خيامه ، وذهب لا يدري أين يتوقّف. وعلى الخيرات الظاهرة والملموسة آثر أمر الربّ. وهوَ لم يكتفِ بأن رفض مناقشةَ الأَمْر وظلّ هادئ السِّرْب ، بل نظر الى قَدْرِ الآمِر ، وتجاوز جميع العقبات البشرية ، وكان همّه الأوحد أن لا يَغْفُلَ عن شيء من الأمور التي أُمِر بها.

٨. لم تَجرِ هذه الأمور من أجل الصدّيق وحده ، فيتجلّى عِظَمُ إيمانه ، بل كانت لنا أيضاً فنُصبح له منافسين. فبعد أن رأى اللهُ هذه النفسَ الكريمة ، وكأنّها مصباح مخفيّ ومُستّر، أراد أن ينقله الى أرض كنعان لكي يقود الى منطق التقوى من ضلّوا فيها وكانت نفوسهم لا تزال غارقةً في ظلمة الجهل. وهكذا كان. فعرف به أهلُ مصر، فضلاً عن سكّان فلسطين، عنايةَ الله التي حوّطته وفضيلة الصدّيق. ألاّ تأمّلْ سموّ هذه النفس الكبيرة كيف جنَّحَها حبُّها لله ورغبتُها فيه. فلم تتوقَّفْ عند المرئيّات ولم تكتفِ بتطلّب الموعودات ، بل جعلت همّها في الخيرات الآتية. لقد وعده الله

(٥) روم ٤ : ٣. (٦) تكوين ١٢ : ١.

أرضاً بأرض قائلاً: «إنطلق من أرضِكَ وهَلُمّ الى الأرض التي أريك»، وقد ترك الحسيّات في سبيل الروحيات.

٩. هل يبدو لكم ما أقوله لُغزًا؟ لا تضطربوا. هاءنذا أُقدّم الإيضاح لكي تعلموا كيف أنّ هذا الصدّيق الذي تلقّى وعدًا بخيراتٍ ماديّة قد ظلّ صابيًا الى خيرات الروح. أنّى لنا أن نفهم ذلك بدقّة؟ لنُصغِ الى كلامه، أو بالحري الى كلام الطوباويّ بولس، معلّم المسكونة، الذي فَقِه ذلك كلّه بدقّة، فقال كلمته فيه، لا فيه وحده، بل في سائر الصدّيقين. ذلك عندما أراد أن يُورد لائحة الصدّيقين من أمثال إبراهيم وإسحق ويعقوب، فقال: «في الإيمان مات أولئك كلُّهم غيرَ حاصلين على المواعد، بل إنّما نظروها وحيَّوها من بعيد، واعترفوا بأنّهم غرباء ونُزلاء على الأرض»(٧).

١٠. ماذا تعني بقولك، أيّها الطوباويّ بولس؟ ألم ينالوا المواعد؟ ألم يستولُوا على كل فلسطين؟ ألم يصبحوا أسيادَ الأرض؟ بلى، يقول الرسول، إنّهم استحوذوا على فلسطين، ونالوا مُلك الأرض، ولكنّهم كانوا، بعيون الإيمان، يتشوّفون الى أمورٍ أخرى. ويُضيف الرسول قائلاً: «والذين يقولون مثل ذلك يوضحون أنّهم يطلبون وطنهم. ولو أنّهم ذكروا الوطن الذي قد خرجوا منه لكان لهم سبيلٌ للعود اليه، لكنّهم يشتاقون الآن وطنًا أفضل وهو السماويّ»(٨). هل رأيت أُمنيَّتَهم؟ هل أبصرت رغبتَهم؟ هل رأيت كيف أنّ الله كان، على كل حال، يَعِدُ المواعِدَ الماديّة ويتحدّث عن الأَرض، وهؤلاء يطلبون وطنًا ويشتاقونه. وهو

(٧) عبر ١١: ١٣.
(٨) عبر ١١: ١٤-١٦.

السماويّ؟ لأجل ذلك أضاف: «التي الله صانعُها وبارئُها». هل رأيت كيف كانوا يتطلّبون الخيراتِ الروحية، وكيف كانوا يتصوّرون الخيراتِ التي لا تُدرك بعيون الجسد بل تُدرك بالإيمان؟

بطلان الخيرات الأرضيّة

١١. وهنا تضطرب روحي، ويتبلبل فكري، عندما أرى أنّنا نسير مسارًا يخالف هذا كلّه. فهؤلاء الصدّيقون نالوا موعد خيراتٍ ماديّة فكانت رغبتهم في الروحانية. أمّا نحن الذين نلنا موعد خيراتٍ روحانية فقد استهوتنا الخيراتُ الماديّة ولم نُصغِ لقول الطوباويّ بولس: «إنّ ما يُرى إنّما هو وقتيّ وأمّا ما لا يُرى فهو أبديّ»[٩]. وكذلك وفي مكان آخر أظهر أنّ هذه النعم هيّأها الله لمحبّيه قال: «ما لم تَرَه عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر»[١٠].

ونحن بعد هذا كلّه نتشهّى الخيراتِ الحاضرة، أعني الثروة، ومجد الحياة، والرّخاء، والتكريم البشريّ، وهي أمور تبدو التماعاتٍ في الحياة الحاضرة. قلت «تبدو» لأنّها ليست سوى ظلال وأحلام.

١٢. فالثروة يتوهّم البعض أنّهم يمتلكونها، وهي كثيرًا ما تزول قبل حلول المساء. إنّها أشبهُ بعَبْدٍ هارب أحمق ينتقل من سيّد الى آخر. وهي تَتركُ في العُرْي والخواء أولئك الذين يحوّطونها بالعناية والاهتمام؛ وكثيرًا ما تُلقي عُشّاقها في مخاطرَ لا تطاق. وللجميع في ماجريّات الأحداث ما يُذْكِر ويُعلّم. وتلك حال المجد البشريّ،

---

(٩) ٢ كور ٤: ١٨. (١٠) ١ كور ٢: ٩.

فرُبَّ رجلٍ يكون اليوم أمام الجميع شهيرًا ولامعًا ، ثمّ لا يلبث أن يَذِلَّ ويَحْقُرَ ويكون أمام الجميع مهينًا.

١٣ . أيُّ شيءٍ أزرى من هذه الأمور التي أكرّر أنّها تطير قبل أن تظهر، التي لا قرار لها فتتوارى في غير إبطاء؟ إنّها كالعَجَلَةِ التي لا تُرى أبدًا متوقّفة على نفس المكان من إطارها ، بل تدور وتدور في صعودٍ وهبوط . تلك حال هذه الأمور. التقلّبُ في الأمور البشرية سريعُ الحركة ، والتحوُّل فيها سريع ، ولا شيء فيها ثابت وبغيرِ حركة ، بل كلُّ شيء متحرّك ومتقلّب . فأيّ شيء أسخفُ من هؤلاء الذين يفغرون أَشْداقهم أمام الخيراتِ الحاضرة وَيُسمَّرُون بها ، مُؤْثرين لها على الأزليّة التي ليس لها انقطاع.

١٤ . من أجل هذا ندّد النبيّ تنديدًا شديدًا بالذين أذهلتهم تلك الأمور، قال : «عَدُّوا هذه الأمور ثابتةً لا هاربة»(١١) . تأمّل كيف أنّه بكلمة واحدة أراد أن يظهر عبثَها . فلم يقل عابرة ، ولا قال حائلةَ ولا قال سريعة الزوال . ماذا قال؟ قال «هاربة» ، مُريدًا أن يُظهر سرعتها ، وشدّةَ تقلّبها ؛ ويعلّمنا أن لا نتعلّق أبدًا بالمرئيات ، بل نجعل إيماننا وثقتنا في الأمور التي وعد بها الله دون سواها.

١٥ . إنّ مواعد الله لا تُخْطِئ وإن اعترضتها ألوف العقبات . وكما أنَّ الله ثابتٌ غير حائل ، ودائم الوجود ، كذلك مواعده ثابتة لا يَعرُوها تغيّر. وذلك إذا لم يَحُلْ عملُنا دون تحقّقها . أمَّا الأمور البشرية فتجري على خلاف ذلك . وكما أنّ طبيعة البشر فاسدة وفانية كذلك عطاياهم فإنّها فاسدة وزائلة . ولا عجب في ذلك ، فإنّنا نحن

(١١) عاموس ٦ : ٥.

البشر جميعًا إلى زوال ، ومن ثَمّ فطبيعةُ عطايانا البشرية تتبع طبيعتنا. ولا شيءَ من ذلك قطّ في مواعد الله. فهي وحدها راسخة وثابتة وغيرُ قابلةٍ للتحوّل والفساد.

نظام يوم المعتمد

١٦ . فلنطلبنّ إذن الخيراتِ التي لا تزول ولا تحول ؛ وما إفاضتي في هذا الموضوع بينكم إلاّ لأقدّم لكم موعظةً تُوافق الجميع ، سواءٌ كنتم من الذين سبقت استنارتهم ، أو كنتم من الذين استحقّوا أن يتقبّلوا الآن نعمة المعموديّة. وإذ قد اجتمعنا معًا ، في هذه الأيّام الأخيرة الى مدافن الشهداء القدّيسين فإنّنا جنينا من ذلك بركةً واسعة ومَوعظةً كبيرة. والآن ، وقد آن لسلسلة اجتماعاتِنا أن تنقطع ، أرى لِزامًا عليّ أن أُذكِّر محبّتكم بوجوب الحفاظ على ذكرى هذه التعاليم العظيمة داويةً فيكم ، وأن تقدّموا الأمور الروحيّة على أمور هذه الحياة.

١٧ . وبحرصكم الشديد على المجيء إلى هذا المكان صباحًا ، وعلى رفع الصلوات وإعلان الإيمان أمام الله ربّ الجميع ، تؤدّون واجب الشكر على ما نِلتم من النعم ، وتلتمسون أن يجعلكُم أكثرَ استحقاقًا للعَون في مستقبل الأيّام ؛ وهكذا ، بعد خروجكم من ههنا ، فلينصرف كلّ واحد الى شؤونه في كل فطنة ودراية ، هذا الى العمل بيديه ، وذاك الى العمل في مصفّ الجنديّة ، وذلك الى حقل العمل العام. ولينصرف كل واحد الى أعماله بخوف ورعدة ، ويَقْضِ النهارَ في انتظارِ أن يعود مساءً الى هنا ويقدّم للسيّد حسابًا عن النهار كلّه ويطلبَ الصفح عن العثرات. وإنّه ليستحيل علينا ، وإن تحصّنّا

بألوف أنواع الحيطة، أن نقي أنفسنا من السقوط في عثرات كثيرة. فقد نلقي الكلام في غير محلّه، أو نُصغي لكلامٍ باطل، أو نُجيل في خاطرنا فكرةً ذات انحراف، أو لا نضبط نظرنا، أو نضيع وقتنا في أمور تافهة، وفي غير المطلوب منّا.

١٨. لهذا يجب علينا كلَّ مساء أن نستصفحَ السيّدَ جميعَ هذه الأمور، وأن نلجأ الى رحمة الله ونُصلّي إليه، ثمّ علينا أن نقضي أوقات الليل بالاعتدال. وهكذا نعود الى استقبال الصباح بالاعتراف الإيمانيّ. وإذا عمل كلّ واحد منّا على تدبير حياته هكذا يستطيع أن يجتاز بحر الحياة الحاضرة في غير خطر، وأن يستحقّ رحمة السيّد. وعندما يدعونا موعد الاجتماع يجب تفضيلُ الأمور الروحيّة والاجتماعُ هنا على كل شيء آخر، حتى يسلم أيضاً ما قد يكون في أيدينا من خير.

الدرس الأخير: الاهتمام بالنفس أوّلاً وترك الهموم الماديّة لله

١٩. فإذا قدّمنا تلك الأمور لم يكن لنا أيّ مشقّة في هذه، والله في محبّته للبشر يفيضها علينا بغزارة. أمّا إذا أهملنا الأمور الروحية ولم نهتمّ إلاّ بهذه، ولم نُقِم أيَّ وزن لنفسنا، قاصرين همّنا على أمور هذه الحياة، تعرّضنا للحرمان في تلك ولم نُفِدْ شيئًا في هذه. فلا نقلبنّ النظام القائم، بل فلنعتبر جودة سيّدنا ولْنُلْقِ إليه بكل شيء، ولا نتفانَ في هموم الحياة. والله الذي أخرجَنا من العدم الى الوجود بمجرّد محبّته للبشر هو حرِيٌّ بأن يمنحنا عنايته كلّها. وقد قيل:

«أبوكم السماويّ يَعلم أنّكم تحتاجون الى هذا كلّه من قبل أن تطلبوه» [١٢] .

٢٠ . لأجل هذا يريد منّا أن نتفلّت من شتّى هموم الحياة وأن نجعل همّنا كلّه في الأمور الروحية . إنّه يقول : اطلُبْ أنت الروحيّات وأنا أهبُك الجسديّات كلَّها بغزارة . تلك كانت الطريقة التي اشتهر بها جميعُ الصدّيقين . وقد افتتحنا كلامنا بذكر فضيلتهم ، فقلنا إنّهم نالوا موعدَ الخيرات الماديّة فطلبوا الخيراتِ الروحيّة . أمّا نحن فقد جرينا على خلاف ذلك إذ إنّنا نلنا موعد الخيرات الروحيّة فاستهوتنا الخيراتُ الماديّة .

٢١ . لأجل هذا فلنقتدِ ، ونحن الآن في حال النعمة ، بأولئك الأبرار الذين أحيوا تعاليم الطبيعة ، بدافعٍ داخليّ من ذواتهم ، وقدّموها على الناموس ، فتمكّنوا من بلوغ هذه القمّة العالية من الفضيلة ، ولنحصر كلّ همّنا في العناية بنفسنا ، ولنبدّل مهامّنا ونوزّع شواغلنا ؛ وَلْنُقْبِل على نفسنا نهتمّ لها ، لأنّ ذلك الأمر الرئيسيّ فينا ؛ ولْنَدَعْ لسيّد الجميع أمر الاهتمام الكامل والعناية الكاملة بالجسد .

٢٢ . وإنّه لأعظم مجلى من مجالي حكمته وسموّ رحمته أن يجعل في يدنا أمر الاهتمام بأعظم شيءٍ فينا ، أعني النفس ، وأن يعلّمنا بالأحداث نفسِها ، أنّه خلقنا أحرارًا ، وأنّه ترك لنا ولإرادتنا أن نختار الفضيلة أو أن ننحاز للشرّ ، وقد أخذ على نفسه أن يوفّر لنا جميع حاجات الجسد ، تاركًا للطبيعة البشرية أن لا تجعل ثقتها في قُوّتها ،

(١٢) متّى ٦ : ٣٢ .

وأن لا تفكّر في أنّها تستطيع أن تُسهم في توفير مقوّمات الحياة الحاضرة.

٢٣. لأجل ذلك نحن الذين ميّزنا الله بالعقل، وأهّلنا لهذا التفوّق، دعانا الى التشبّه بالحيوانات غير الناطقة قال: «انظروا الى طيور السماء فإنّها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء، وأبوكم السماويّ يقوتها»[١٣]. فكأنّي به يقول: إذا كنتُ أهتمّ للطيور غير الناطقة مثل هذا الاهتمام موفّرًا لها حاجتها كلّها بغير زراعة ولا حراثة، فكم يكون أحرى بي أن أهتمّ بكم أنتم العاقلين إذا قدّمتم الروحيّات على الجسديّات. يقول: إذا كنت قد خلقت كلّ ذلك لكم، وكلّ الخليقة من أجلكم، وأنا أهتمّ بها هذا الاهتمام الشديد، فبأيّ عناية أراكم أجدر أنتم الذين خلقتُ هذا كلّه لهم.

٢٤. فلنثِقْ إذن في وعد الله، ولْنَمِل بكل نفوسنا الى التماس الأمور الروحيّة، ولنعتبر كلّ ما سواها ثانويًّا بالنسبة الى المُتعة بالخيرات الآتية، حتى ننال الحاضرة بغزارة، ونتمكّنَ من استحقاق الخيرات التي وُعِدْنا بها، وننجوَ من عذاب جهنّم. فلا تعودوا بعد الآن الى التراخي، وهدرِ الوقت في ما لا يُفيد، والى الفساد الجماعيّ في الولائم اليوميّة والتعاطي المتواصل للمُسكرات، ولا نُذِبْ ما جمعناه من الخير بالإهمال. بل فلنعمَلْ على صيانة جميع المواهب التي نلناها من محبّة الله للبشر.

٢٥. وإنّي أدعوكم، أنتم الذين لبستم المسيح من وقت قريب، وتقبّلتم زيارة الروح القدس، الى أن تحافظوا يومًا فيومًا على نَصاعة

(١٣) متّى ٦: ٢٦.

ملابسِكم بحيث لا يلحقُها وَضَـرٌ أو تجعُّد. ولا تكونوا عابثين في ما تقولون ، ولا مستهترين في ما تسمعون ، ولا فاسقين في ما تتصوّرون ، ولا مترجرجين بنظراتكم على غير هُدى وعلى غير ترصُّن. فَلْنسوِّر ذواتنا جميعًا ، ولا ننسَ ذلك اليوم الرهيب ، حتى إذا بقينا في تألّقنا ، وصُنَّا ثوبَ نزاهتنا من كلّ تلوُّثٍ ووَضَر ، نستحقّ تلك المواهب السامية ، التي نأمل جميعًا الحصول عليها بنعمة سيّدنا يسوع المسيح ومحبّته للبشر ، الذي له وللآب والروح القدس المجد والقدرة والكرامة ، الآن ودائمًا والى دهر الدهور. آمين.

الفهرس

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان

A.T.I.M.E.

رابطة معاهد اللاهوت في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي:
ص.ب. ٥٣٧٦ بيروت - لبنان
هاتف: ٣٤٤٨٩٤/٦-٣٥٣٩٣٨
برقياً: اكليبا
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال:
P.O.Box 4259 Limassol. Cyprus
Tel: 05-326022
تلكس: 5378 OIK CY
تلفاكس: 05 - 324496